



عمرو عبد العزيز

بعدما تنتهي من هذه الرواية ..

أعجبتك أم لم تعجبك ..

عليك البحث بنفسك عن مصير العرب النهائي في بر الزنج

راكان

١
البريمي - عُمان : ١٨١٧

بين دوي المدافع لاحت امارات الهزيمة ..
لابد أن ينسحب جيشنا .. لامفر ..
(ثويني البريكي) استطاع دحرنا هذه المرة ..
نظرت الى (سعد القحطاني) بجواري دون أن أتحدث فهز رأسه في يأس قائلاً :
- إن بقينا أكثر من هذا سيحصدنا (ثويني) حصداً .. لابد أن نفعلها ..
لم أعلق ورفعت رأسي قليلاً فوجدت خيول جيشنا تنسحب من السهل ومعهم قائدنا (فهد المطيري) نفسه ..
الأكيد أننا فشلنا هذه المرة ..
استجبت لسعد وبدأنا في الانسحاب .. كنا متواجدين على قمة جبل صغير يطل على المعركة نصطاد ببنادقنا بعض جنود (البريكي) ، منعزلين تماماً عن جيشنا في مقدمة المقدمة .. والأغلب أن قائد جيشنا نفسه لم يعلم بمغامرتنا المجنونة بصعود جبل بهذا القرب من العدو وبهذه الوعورة المستحيلة .
أثناء نزولنا شعرت بالقلق .. لقد ابتعد جيش (فهد) كثيراً .. ونحن لازلنا نتلمس طريقنا في النزول بصعوبة .

تسرب شئ من الهلع في نفس (سعد) عندما سمعنا جلبة جنود (البريكي) تقترب من الجبل وتبدأ في احاطته .. سارعنا بالنزول بعدما انتبهنا لذلك الكمين الذي أوقعنا أنفسنا به بقلة خبرتنا الحربية ، هذا الجبل بوعورته العنيفة يمنع أي انسحاب سريع .. إنه فخ حقيقي ..
فجأة ظهر أربعة من جنود (البريكي) اسفل الجبل يقطعون طريقنا للهروب .. لجمتهم المفاجأة لثوان واستبد الهلع بـ(سعد) فأطلق النار فوراً وأردى أحدهم قتيلاً بسرعة !
صرخت فيه أن يتوقف وانحنيت لاختفي وراء أحد الصخور الناتئة وأعددت بندقيتي ..
لكن (سعد) لم يستطع التوقف .. الهلع الشديد الذي استبد به جعله لا يتوقف وانما واصل اطلاق النار .. وقبل أن يطلق الطلقة الثالثة .. عاجله أحد جنود (البريكي) بطلقة في قلبة ..
شعرت بالغضب الشديد .. لقد شاهدوني .. أنا واثق من هذا .. معنى هذا أنني ميت ميت .. فلأمت بشرف اذن ..
صعدت فجأة من خلف الحجر وأطلقت النار من بندقيتي مرتين على الأعداء .. اختبئوا سريعاً فقفزت بسرعة بالغة على الصخور والأحجار الأمتار الباقية قبل النزول من الجبل .. وفاجأتهم في مخبئهم وأنا أنقض عليهم رافعاً سيفي صارخاً ..
بسرعة رفع ثلاثتهم السيوف برغم شعورهم بالمفاجأة .. ورحت أبارزهم بقوة .. انني ميت .. وأشرس مقاتل هو من يتيقن بأنه ميت لا ريب .. انه يحاول أن يسبب أكبر دمار ممكن في الأعداء انتقاماً لموته القادم !
تراجع الثلاثة في دهشة أمامي .. أعمارهم فوق الثلاثين وبالتأكيد يشعرون بالدهشة لقوة وعنف شاب لم يتعد الخامسة عشر مثلي .. لكني سألقن هؤلاء الحمقى درساً .. لقد كنت أقوى وأذكى أبناء قبيلتي ومع ذلك لم يُقدرني أحد فيها لصغر سني ، وما اشتركت مع جيش (فهد المطيري) في معركة لم أقتنع بأسبابها تماماً الا لاثبت لهؤلاء الحمقى العجائز أن القوة والذكاء والنبوغ لا يرتبطان بسن معين ..

والآن زادت تلك النظرات المندهشة من غيظي أكثر .. نعم أنا صغير في السن وشديد القوة والشراسة بل والذكاء أيضاً يا حمقى .. سأهزم كل من يسخر مني أو يستهتر بقوتي ..
سقط السيف من يد أحدهم فدفعته بقدمي في عنف ليسقط على ظهره واستكملت قتالي مع الباقيان .. نهض بسرعة وركض هارباً ..
كنت أقاتل كالليث .. انني ميت .. انني كبير العقل والذكاء .. سألقن الجميع درساً ..
بدأ الارهاق وعلامات التراجع يظهران على وجه مقاتلي ..
يبدو أنني سأهزمهما .. يبدو أنني سـ ..
وهنا تلقيت تلك الضربة الهائلة العنيفة على رأسي من الخلف ..
وأظلمت الدنيا أمام عيني ..

***

أفقت فجأة على صدمة ماء بارد صُب على وجهي ، كنت ساقط على الأرض ويداي مقيدتان بالأغلال .. نهضت بسرعة مصدوماً فدوى هتاف صارم بأن أهدأ ..
بين الضباب المحيط بنظري وعقلي رحت أتبين ما حولي .. كنت أقف الآن أمام شخص قوي النظرات جالس على كرسي في صدر المكان ..
و كنت محاطاً بخمسة جنود أقوياء في خيمة كبيرة مزينة ببعض الدروع والسيوف .. من معرفتي لمثل تلك الخيمة فهي خيمة قائد الجيش ..
اذن أنا أمام (ثويني البريكي) نفسه !
برغم ضبابية المشهد في ذهني والألم العنيف في رأسي الا انني اعتدلت قدر الامكان وقلت ساخراً :
- لابد أنني أصبتك يا سيدي بضيق شديد حتى تصر على رؤية جندي صغير مثلي !
ابتسم (ثويني) في ذكاء وتراجع في مقعده وهو يقول في اعجاب :
- شاب صغير بهذه القوة والشجاعة حالة مُحيرة حقاً .. كان لابد أن أشاهدك وأحدثك ..
قلت في ضيق :

- الصغير هو صغير العقل .. أسامة بن زيد قاد جيشاً كاملاً وهو في سني تقريباً .. انما هي العادات والتقاليد ..
أسند (ثويني) ذراعه على مسند مقعده وقال بنبرة هادئة :
- الحق أنك قاتلت كالأسود فعلاً .. لكن الذكاء والشجاعة يحتاجان الى خبرة .. والا فكيف وقعت في هذا الفخ بصعودك جبل مستحيل أن يوفر لك انسحاباً سريعاً ؟
زاد الضيق في نفسي ولم أعلق ،نعم هذه أول معركة أخوضها في حياتي ، لكنني كنت غبياً حقاً بهذا الفعل .
شاعت على وجه (ثويني) ابتسامة وقال في اعجاب :
- لكن الحق أنك جندي شجاع وقوي جداً .. ما اسمك يا فتى ؟
- اسمي هو (راكان التميمي) .
- من (نجد) طبعاً .. من (الحوطة) تحديداً ؟
- نعم ..
- ولماذا جئت معهم ؟ هل تعرف أصل الخلاف الحقيقي بيننا وبين الوهابية ؟
رفعت رأسي في اعتداد وقلت :
- نعم .. لقد قرأت الكثير وتعلمت الكثير من شيوخي .. أعرف تماماً الفوارق بيننا وبينكم ..
ضم (ثويني) كفيه وقال في حزم :
- مهما كانت الخلافات بيننا فهي تقع في نطاق الاسلام .. لم يكن من المفترض أن نتقاتل وأعداء الأمة على الأبواب .. يجب أن تفهم هذا يا (راكان) ..
لم أرد طبعاً ، أنا نفسي كنت غير مقتنع بهذه الحرب ، وما اشتركت فيها الا لأسباب بعيدة عن إدراك أي شخص ..
تراجع (ثويني) في مقعده وهو يسألني :
- لكن الذي جعلني أندهش .. هو عدم قتلك لـ (نعمان) .. وهو الجندي الذي أسقطته بقدمك اثناء قتالك الأخير .. لماذا لم تقتله ؟

في صراحة قلت له :
- لم أقتل طوال المعركة أيا من جنودكم .. لقد أطلقت الرصاص على الأذرع والسيقان والخيول .. لكني غير مقتنع أنا الآخر بهذه الحرب .. انما جئت هنا لأثبت لأهلي وللجميع أن النبوغ والقوة لا يرتبطان بسن !
ظل (ثويني) ينظر لي في دهشة بالغة لدقائق .. ثم أطرق برأسه الى الأرض في حيرة .. قبل أن يرفعها قائلاً في حزم :
- الحق أنك حالة مثيرة للدهشة يا (راكان) .. سأعفو عنك ولن أقتلك بشرط واحد .. أن تعاهدني على ألا تهرب وتصحبني الى جلالة السلطان (سعيد) كي يراك .. فهل توافق على العهد ؟
الحقيقة أن الرفض لم يكن خياراً متاحاً لي أبداً ، فعقابي سيكون القتل فوراً ان فعلت ، ظللت صامتاً لدقائق أفكر في العهد وتبعاته ..
في النهاية قلت في حزم :
- أعاهدك بأن أصحبك يا سيدي حتى يراني السلطان (سعيد) ..
وليقض الله أمراً كان مفعولاً ..

٢

على قمة أعلى أبراج قلعة (الرستاق) جلست أتأمل الجبال من حولي ..
أيام عديدة قضيتها مع الجيش العُماني العائد الى مسقط .. وتوقفنا أخيراً في مدينة الرستاق .. في حصنها بالذات .. ذلك الحصن الضخم الذي بني - كأغلب حصون وقلاع عُمان - على شكل أسوار ضخمة أنيقة التصميم بلا زخارف ، يقطعها أبراج على شكل أسطوانات حجرية ضخمة للغاية ..
الحقيقة أنني أصبت خلال هذه الأيام بحيرة بالغة .. هناك عشرات المفاهيم تغيرت بداخلي وصنعت ألف سؤال أخشى اجابتهم بصراحة !
لقد جئنا نقاتل هؤلاء العمانيين على أنهم خوارج .. خلافنا المذهبي قائم على هذا .. لكن خلال نقاشي مع بعض الجنود والشيوخ المرافقين بدأت استشعر أن هناك شئ ما خطأ !
ان كثير منهم لا يُقر تكفير عثمان وعلي .. البعض شعر بالدهشة حقاً من نقاشي في مسألة الصفات وخلق القرآن ! ان أغلب هؤلاء عوام تماماً وهذه المسائل لا تشغلهم على الاطلاق .. وما يعرفونه منها شبيه للغاية بما يعرفه عوام عشيرتي بل وعوام نجد كلهم !
ان المسائل الخلافية التي اشتعلت نيرانها في القرون الأولى لا تشغل هذا الحيز الهام في وقت الآخرين .. لقد مضت تلك القرون التي شعر فيها المسلمون بالرخاء وعدم أهمية الجهاد لأن العالم دان لهم ، فطفقوا يطوفون في ملاعب الفلسفات والتنظيرات المعقدة الناتجة عن الرفاهية الفكرية قبل أي شئ ..
الآن نحن في عالم مُهدد بالفعل ، نحن في نجد ثرنا على من حولنا بسبب انتشار البدع والخرافات ، بكل تأكيد لنا الحق الكامل في هذا ، لكن عدم احتكاكنا مع أعداء الأمة الاسلامية الصليبيين أصابنا بقصور عجيب في النظر ، فانشغلنا في معارك مذهبية الطابع للأسف .. مع انها في حقيقتها توسعية في كثير من الأحيان !

ان منهجنا هو أسلم المناهج ، أقر هذا وأؤمن به ولن أتزحزح ، ان نقاشاتي خلال الأيام الماضية مع بعض الشيوخ الاباضيين المرافقين للحملة ، نعم بعضهم بل أغلبهم متعصب ، لكن منهم من يرفض الخوض في أحداث الفتنة الكبرى ، بل والمذهل أنه استشهد بكلمة (عمر بن عبد العزيز) الشهيرة :تلك فتنة قد طهر الله منها أيدينا ، أفلا نطهر منها ألسنتنا ؟

حقاً !

شعرت بالذهول .. هناك من علماء الاباضية من يردد هذا القول الحكيم ؟

سبحان الله ..

لم التناحر اذن بيننا كمسلمين ؟

ما الذي ستضيفه قطعة من الصحراء الى آلاف الكيلومترات الجرداء التي يمتلكها كل حاكم ؟

أليس من الأولى ، في هذه الفترات الحرجة والعدو على أبواب الأمة بمدافعة وصلبانه ، أن نوجه طاقاتنا له ، دون أن نتنازل عن عقيدتنا قيد أنملة ؟

تذكرت قولة (ثويني البريكي) ذات يوم وكان يحضر نقاش أحد الشيوخ الاباضيين معي :

- لقد كنا في عُمان نواجه البرتغال المحتلة الرافعة رايات الصليب ومن خلفنا يطمع اخواننا المسلمين النجديين في السيطرة على بلادنا بدلاً من الاتحاد معنا لمواجهة الكفار ! أي عقل يرضى بهذا ؟

شعرت بضيق بالغ وألم هائل ، حقاً لم نفكر بهذه الصورة التي يفكر بها هؤلاء ..

الذي أذهلني أكثر هو رقة حاشية هؤلاء القوم !

إنهم طيبون جداً معي ! لقد كنت منذ أيام تابع لجند الأعداء ومع ذلك لم يمنعهم ذلك من اكرامي مادمت سألقى السلطان وعاهدتهم على عدم الغدر بهم !

أعطوني درجة هائلة من الحرية ، لدرجة أنني الآن جالس وحدي تماماً فوق أعلى نقطة في واحد من أهم حصون عمان !

هل هي ثقة هائلة أم سذاجة مذهلة ؟
لا أدري !
الغريب والمدهش ، هو كيف لقوم مثل هؤلاء ، في طباعهم ترحاب وهدوء وتسامح ، أن يعتنقوا مذهباً متشدداً مثل المذهب الاباضي ؟!
لعمري ستبقى هذه من ألغاز التاريخ المحيرة ، لكن ربما السبب الرئيس هو أن الانسان الطيب المحب للتبسيط غالباً لا يفهم تعقيدات النفس البشرية ، فيكون أكثر خشونة في أحكامه على الأشخاص ، وبالتالي توافق معهم ذلك المذهب الخشن في الأحكام !
" مشهد جميل ، أليس كذلك ؟ "
جفلت ونظرت خلفي ، كان المتحدث القادم هو نعمان ، ذلك الشاب الذي أسقطته في مبارزة يوم أسري ، الغريب أنه أصبح مرافقي واعتبرني صديقه !
التفت مرة أخرى الى المشهد الرائع وأنا أقول :
- بلدكم جنة لازلت غير مصدق لوجودها في جزيرتنا العربية .. لكم الحق أن تفخروا بها وتعشقونها ..
جلس (نعمان الربيعي) بجواري وهو يقول :
- انها ليست بلد واحدة بالمعنى المعروف .. الحقيقة أننا بلد منقسم انقسامات داخلية قبلية من شبه المستحيل رتقها في رأيي .. لكن هناك شئ ما يجمعنا كلنا ، ربما هو المذهب الاباضي ، أو تعودنا على العيش خارج نطاق سلطة خلفاء الأمويين والعباسيين وكل من تلاهم .
ابتسمت وأنا أقول له :
- لهذا سموكم بالخوارج .. تعودتم الخروج على حكام المسلمين الذين يجمعون الأمة .
انعقد حاجبي (نعمان) كعادته عندما أطلق عليه لفظ (خارجي) وقال :
- قد أتفهم سبب اصرارك اننا كنا على خطأ في رفضنا لعثمان وعلي .. هناك بعض علماء مذهبنا بدأ يراجع نفسه من موقفنا فيهما ، لكن بالله عليك لا تحدثني عن خليفة جاء بارادة

المسلمين الحرة بعدهما ، انما هي ممالك كسرى ، فإن خرجنا على هؤلاء كيف نسمى بالخوارج ؟

قلت له وأنا أرفع أصبعي منبهاً :

- تذكر أنك نفسك ذكرت لي من قبل ضرورة نبذ الخلافات المذهبية أمام حصار الأعداء الكفار .. ألا تُعد هذه حجة كافية للتنازل عن السلطة للأمويين وغيرهم مقابل ايقاف الفتنة الداخلية المرعبة التي هددت الدولة الاسلامية كلها وقتها وكادت تكشف قلبها للأعداء ؟

تأمل (نعمان) قليلاً ثم تراجع بظهره قائلاً :

- لا يمكنني أن أدعي خطأ وجهة النظر تلك .. فهي أمر سياسي يمكن اختلاف الأمة فيه ، لكن في رأيي الاستبداد السياسي أمر خطير كان من الواجب الاستمرار في مجابهته بكل الطرق والوسائل .. لاحظ أننا لسنا مثل الشيعة الحاقدين ، اننا نؤمن بالبخاري ومسلم بجوار كتب الأحاديث الخاصة بنا مثل مسند الربيع ، وليس لنا عداء منظم ومنهجي مع خلفاء أهل السنة ، بل حدثت مراسلات أكثر من مرة معهم ، لكننا أصررنا على الاختيار الحر لإمامنا وحاكمنا وامتلاك القدرة على خلعة ان لم يطبق فينا شرع الله ، أليس هذا أفضل من الملكية ؟

قلت له في تأكيد :

- بل أنا شخصياً أؤمن تماماً بأن الملكية حرام وفي هذا أقر أن نظامكم السياسي أفضل وأقرب للشرع .. وخلفاء رسول الله الراشدين لم يفرضوا أنفسهم على أمة كارهة لهم ولم يورثونا أطفالهم كأننا متاع بلا عقل ..

ثم تابعت في نبرة تحمل بعض اللوم :

- لكن لا تنس أن هذا ليس من أصول مذهبنا.. كما أنكم تعيشون الآن زمن تورثون فيه أنتم أيضاً من سلطان لآخر دون أخذ رأيكم ومع ذلك تعترفون أن هذا ليس من أصول مذهبكم .. من الغباء محاسبة مذهب على واقع يكرهه ويعاديه ..

أدار رأسه نحو الجبل ليتأمل قليلاً دون رد فتوقفت للحظة ثم تابعت وأنا استمتع بنسمة هواء منعشة :

- أتعرف .. أعتقد ان الخلاف هو سياسي بالدرجة الأولى نتج عنه هذا الخلاف المذهبي ، وليس العكس .. ليتنا نتسامح قدر الامكان في هذه الأمور بدلاً من اشعال الحروب الداخلية البغيضة والتي تشغلنا عن أعداء الأمة الحقيقيين ..

توقفت عن الكلام ورحت أتابع أسفل القلعة سرباً من الجمال يسير خلف أحد البدو والأخير يشدو بأغنية عمانية قبلية لا أعرفها ..

مرت دقائق قبل أن يقول (نعمان) بنبرة مختلفة غريبة وهو يمسك كتفي في قوة :

- أنت الآن ذاهب الى (مسقط) لتقابل السلطان نفسه ، صدقني يا (راكان) ستشاهد هناك أشياء خطيرة .. لن أبح بها لك وسأدعك تشاهدها بنفسك ، لكن الخلاصة أن مخاطر مذهبية مثل (فتنة خلق القرآن) و (الاسماء والصفات) ستبدو ضئيلة جداً وخارج الزمان بالنسبة لما ستجده هناك .. ستعرف أن هناك فتن جديدة أكبر وأخطر وبلاؤها أشد ، ستظهر تلك المسائل القديمة بجوارها كأنها ترف فكري يصل الى حد السفاهة ان تمت مناقشته !

شعرت بقلق ، نظرت الى وجهه الجاد في تساؤل فوقف وهو يقول لي :

- انك تملك عقلاً نادراً بالنسبة الى سنك يا (راكان) .. ربما تصبح ذو شأن كبير يوماً ما .. لكن لا تتوقف عن البحث والتنقيب عن أمراض الأمة في حاضرنا .. لا تتوقف عن محاولة فهم الفتن الحديثة.. دعك من الفتن (الفلسفية) القديمة التي مضى زمانها بزمان ، بل حاول فهم الفتن الكارثية الجديدة التي نعيش فيها بلا أمل ..

ثم أشار باصبعه على الجبال التي امامنا وقال في حزم :

- من هنا ابدأ البحث يا (راكان) ..

من مسقط عُمان ..

٣

" ألن تأت للصلاة معنا يا راكان ؟ "

كان (نعمان) واقفاً على باب الخيمة الخاصة بي يسألني ، شكرته واعتذرت له فنظر لي لفترة قصيرة ولم يعلق ، أغلق باب الخيمة وخرج ..

برغم كل شئ لم أستطع ابتلاع الصلاة معهم ، انهم لا يرفعون يدهم في تكبيرة الاحرام وهذا يثير جنوني بجوار أمور أخرى ! لهذا آثرت أن أصلي وحدي طوال وجودي معهم ..

هل ما أفعله هو الصحيح ؟

لا أدري !

هذه هي المشكلة الحقيقية .. طوال فترة السفر هذه كنت أشعر في أحيان متفرقة باحتياج شديد لشيخ من أهل السنة يساندني ويوجهني ، للمرة الأولى في حياتي أشعر بأني لازلت صغيراً في السن والعلم .. لازلت في احتياج الى عالم أرجع اليه كلما أظلمت الدنيا من حولي ..

أكثر ما ضايقني أيضاً وآلمني بشدة أنني شعرت بعدم انتماء فعلي وحقيقي لنجد !

أهلي كلهم ماتوا تقريباً في احدى غارات (محمد علي) القديمة وجيشه الغاشم ، ومن وقتها وأنا أعيش في رعاية الشيوخ والمقاتلين في الحوطة ..

هذا جعل في روحي اشتياق للرحيل عن مكان لا يحمل لي سوى الألم ، وزادتني ثقتي الهائلة في نفسي رفضاً للبقاء هناك .. نعم كنت أشتاق للخروج من نجد واثبات تفوقي في كل مكان ..

لكن الأخبار الآتية من نجد أثناء الرحلة أثارت ضيقي وشعوري بالألم وجعلتني أعتقد في نفسي الجحود لأفضال شيوخي وعشيرتي ..

الجيش العثماني المصري يجتاح كل شئ هناك .. الدولة السعودية في أفول وذاهبة الى الانهيار ، يبدو أن (محمد علي) ينوي تدميرها عن بكرة أبيها ، بل هناك من يردد أن (الدرعية) نفسها ليست بعيدة عن مرماه وان لم يكن يُظهر هذا حالياً ..

هل الجنود العُمانيين سُعداء بهذا ؟

هل هم سُعداء بدمار عدوهم ؟

هذا أيضاً من الأمور التي زادتني قرباً من هؤلاء .. انهم يشعرون بمشاعر مختلطة كثيرة ، بين الشماتة في السعوديين الذين حاربوهم طويلاً ، وبين الغضب الداخلي لأفعال جيش (محمد علي) الفاحشة واغارته على قبائل عربية يرتبطون معها بصورة أو بأخرى ..

هذه المشاعر المختلطة هونت الأمر علي قليلاً ، هم ليسوا شراً خالصاً مثل جيش (محمد علي) الذي يهجم على المدن فيدمرها ويحرقها ويسبي نساءها ويفعل من المنكرات والفواحش ما يجعل رمال الجزيرة العربية كلها تئن وتبكي من سفالتها !

حادثت بالأمس قائد الجيش العُماني (ثويني البريكي) ورجوته أن يسمح لي بالرحيل الى نجد كي أقف بجوار قبيلتي ان ساءت الأمور أكثر من هذا ، فهز رأسه بهدؤه المعهود وهو يقول :

- لن تقدم لهم شيئاً هناك ، ان اجتياح (ابراهيم باشا) أكبر وأعنف مما تتخيل ، ان الزمن القادم هو زمن (عُمان) .. زمن مسقط لا زمن الدرعية ..

عندما لاحظ تأثري الشديد قال لي بنبرة أبوية غريبة :

- لابد أن تعرف انني أعتبرك مثل ابني الذي قُتل في احدى المعارك مع (القواسم) .. ونصيحتي لك كأب أن تأتي معي الى مسقط .. لن تستفيد نجد شيئاً منك ، ولا أقرباء لك هناك ..

الحقيقة أن مسألة شعوره بالأبوة نحوي عرفتها من قبل ، نعمان الثرثار حدثني عن فقد (ثويني) لأبنه المتحمس القوي الذي قُتل في نفس سني تقريباً في معركة مع قبيلة (القواسم) التي تحترف القرصنة ..

كان استنتاج (نعمان) أن (ثويني) رأى ابنه في شخصي أنا .. لهذا تمسك بي ، ولهذا يقودني الى مسقط بحجة مقابلة السلطان سعيد ..
المخيف في الأمر ، أن (نعمان) كان توقعه أن (ثويني) سيتمسك بي بجنون ، إنه لم يمتلك سوى ابن واحد وقد فقده ، وإذ به أمام شاب يذكره بابنه بدرجة مبالغ فيها ، وهو يتيم بلا أهل ..
انه ينظر الي على أني تعويض إلهي عن ابنه !
فكيف يتركني أرحل ؟
لكنه لا يحبسني مع ذلك ، أعطاني حرية هائلة ، وربطني بوعد وعهد ، لا يضع أي حراسة علي ، ولو أردت الهرب لفعلت بسهولة ، ديني لن يقبل أن أخون عهداً مع مسلم ، وقلبي لن يقبل أن أزيد آلام رجل يعتبر نفسه أبي ، وعقلي لن يقبل أن يسمونني (التميمي الوهابي لخائن العهود) !
خرجت من الخيمة كي أتوضأ لصلاة الفجر وحدي ، فشاهدت (ثويني) قادماً نحوي عند البئر ، اعتدلت وتوقفت فوقف أمامي قائلاً :
- الحقيقة يا (راكان) انني أتمنى رؤية صلاتك معنا ، لكني لن أحملك على فعل شئ يرفضه مذهبك .. وتجاربنا معكم تؤكد أنه من المتسحيل تقريباً تحويل أي منكم عن مذهبه ..
- أعتذر لك يا سيدي ان كنت قد ضايقتك ..
أشاح (ثويني) بيده ليظهر عدم الاكتراث قبل أن يسألني في حزم :
- هل تجد أي مضايقة من أي جندي هنا ؟
- أبداً .. الحقيقة أنهم جميعاً يتعاملون معي بود كبير ..
- لا تعتمد على هذا كثيراً .. هناك الكثير منهم فقد أهله في معاركه مع السعوديين ، والكثير منهم يبتسم لك لكنه لن يتوانى عن ذبحك متى أتت الفرصة ، لكن تعليماتي الصارمة فقط هي من تحميك وتجعلهم لا يجرؤون على مجرد النظر اليك بصورة سيئة !

شعرت برهبة ، مرة أخرى أشعر بصغر سني وسذاجتي ، لم أتعود على أحد يبتسم لي ويضاحكني وهو يحمل الشر بداخله ، شعر (ثويني) بارتباكي فأكمل :

- تخيل نفسك أمام جندي من جنود (محمد علي) الذين قتلوا أهلك ، مما عرفته عنك فستقوم بقتله فوراً ، لكن الانسان كلما كبر في السن كلما زادت حيلته وزاد مكره .. قد يكون ابتسام بعضهم في وجهك لابعاد الشكوك حوله يوم نجدك مذبوحاً !

ظللت لفترة عاجزاً عن التعليق ، صدمتي ليست في احتمال قتلي ، وانما صدمتي في امكانية مواجهة مثل هذا الشر المتخفي ..

شر على هيئة صديق مبتسم !

سألته في حذر :

- هل تشك في (نعمان) ؟ كأنك تحدثني عنه !

- لا أشك في أحد ، أنا قائد جيش يا بني ولست صديق هؤلاء حتى أعرف ما في نفس كل فرد منهم ، لكنها نصيحة لك .. من رجل في عمر أبيك ..

شعرت بتهدج في صوته عند المقطع الأخير ، فاستدار راحلاً ، لكني هتفت أستوقفه متسائلاً :

- ألا تشك في أنا نفسي أن أكون من هؤلاء المنافقين ؟

توقف للحظات مفكراً ثم التفت بوجهه فقط نحوي وهو يقول مبتسماً :

- في سنك الصغير هذا عندما تبتسم ، فابتسامتك تتحول الى ضحكة قادمة من السماء ، وعندما تغضب ، فغضبك يتحول الى عنف قادم من سقر .. صدقني لدي خبرة قديمة بهذا الأمر .. و لم أتعود في أهل تميم النفاق ..

ورحل تاركاً اياي أمام البئر وقد بدأت السماء تتزين استعداداً لاستقبال شمس الصباح .. تباً .. سيفوتني الفجر !

٤

كان بداخلي الكثير والكثير ونحن نتحرك في داخل مسقط !
المدينة جميلة في ضوء الفجر .. بصراحة أفضل من درعية نجد .. لن أحدثك عن الجبال المنيعة المحيطة بها والتي أثارت رهبتي أثناء مرورنا بها .. هذه بالفعل مدينة صعب جداً اختراقها عن طريق البر ..
أما عن البحر .. ذلك الأزرق اللانهائي الذي حدثني عنه بعض من قاتلوا في الحجاز .. فقد شعرت بالرهبة عندما رأيته !
كانت هناك سفن كثيرة فيه .. بعضها عليه أعلام ملونة غريبة وبعضها عليه علم أحمر .. سفن كثيرة جداً ومشهد يحبس الأنفاس ..
كان هذا المشهد الساحر للبحر قد حرك شيئاً أشبه بالجنون في نفسي .. لولا أنني أعتبر أسير لدي سلطان عُمان لهرولت راكضاً أتحسس مياهه .. للمرة الأولى أتمنى لقاء (ثويني) .. لكني لم أره منذ نصحني مؤخراً .. انشغل بأمور كثيرة لا أعرفها ولم يتبق لدي سوى نُعمان يحدثني بين الحين والآخر ..
كان (نُعمان) يسير خلفي .. أغلب الجيش تفرق قبل دخول (مسقط) الى قبائله ولم يتبق سوى حامية مع (ثويني) هي من أهل مسقط ..
انه ينتظر الرحيل الى منزله فور وصول (ثويني) الى القصر السلطاني .. سيتجمعون فيما بعد لشأن آخر ، خاصة انني سمعتهم يتحدثون كثيراً في الجزء الأخير من الرحلة عن إمكانية ابحار بعضهم الى مدينة بحرية إسمها جلفار مع (ثويني) و السلطان لضربها !
لم أفهم .. ولا أعرف عن جلفار هذه سوى أقل القليل .. هذه المنطقة من ساحل خليج العرب بعيدة عن الجو والحياة النجدية تماماً .. حتى قبائلهم فيها اختلاف وطباعهم فيها اختلاف ، هكذا كان يُقال لي دائماً !

وصلنا أمام قلعة كبيرة تُطل على البحر من ارتفاع كبير .. مشهد مذهل لم أره من قبل طوال عمري !

هنا رأيت ثويني يتقدم الي من وسط الصفوف .. اعتدلت فوراً ..

مال علي وأخبرني بأنني سأنتظر في هذه القلعة مع بعض الجنود .. و سيمر علي فيما بعد ليقدمني للسلطان !

ماذا ؟!

أنا حبيس في هذه القلعة اذن ؟

أين الأبوة وأين حجة رؤية السلطان لي ؟

لم أستطع أن أعترض بهذا الكلام وسط جنوده ، خاصة انه ألقى على مسمعي هذه التعليمات ، ثم صحبني خمسة من الجنود الى باب القلعة ، بينما واصل هو وجنوده الطريق الى قصر آخر قريب !

أنا مسجون !

أليست هذه خيانة ؟!

***

في القلعة عاملوني بجفاء .. جنود القلعة مزيج غريب من العرب العمانيين بخناجرهم وسيوفهم المميزة ، وملامحهم التي هي ملامحي ..

وجنود آخرين منظرهم شديد الغرابة ، ليسوا عرب قطعاً ، ويتحدثون بلغة عجيبة !

أدخلني هؤلاء الى غرفة فيها فراش حجري وفيها نافذة صغيرة للغاية ..

نظرت منها في قهر الى السفن التي تتحرك في البحر رائحة وغادية ..

لقد خُدعت .. خُدعت عدة مرات من هذا الرجل الخبيث ..

خدعني (ثويني) !

لكن لماذا ؟!

***

في الأيام التالية ازدادت مرارتي .. كدت أصاب بالجنون .. ما هو سبب خداعي ؟
لماذا سُجنت ؟
كان هناك جندي عماني يمر مرتين يومياً ليزودني بالطعام والشراب ثم يرحل .. ما عدا ذلك لم أكن أملك أي تسلية ولا منفذ سوى تلك الكوة الصغيرة في الحائط ..
مرت عشرة أيام على نفس الحال ..
وبدأت أعرف أن تلك الكوة هي منفذي للحرية !

***

دخل الجندي العماني في نفس توقيته اليومي المسائي يحمل لي الطعام ..
كنت واقفاً أمام النافذة الصغيرة ، فما ان رأيته حتى ظهر ارتباك شديد علي وجهي وأدرت ظهري للكوة أسدها .. شكرته بصوت متهدج مرتبك ..
لاحت نظرة شك في عينية .. سألني عما هناك .. فأخبرته بارتباك أشد أنه لا يوجد شئ .. زاد الشك أكثر وطلب مني أن أتنحى عن الكوة .. لكني لم أستجب وظهر ارتباك أكبر في وجهي .. شهر سيفه غاضباً واتجه نحوي ثم دفعني بعنف الى الأرض واقترب من النافذة ليتفحصها أكثر ..
الآن فرصتي ..
قفزت من الأرض فوراً بصورة مباغتة .. كنت أملك نشاطاً كبيراً وثقة أدهشته ، التفت الي في ذهول وحاول ضربي بسيفه غير فاهم لهذه السرعة الخرافية التي تغلبت بها على ارتباكي وسقوطي .. لكنه لم يكن يعرف انني استعددت لهذا جيداً من قبل !
ضربته في وجهه وأنا أتفادى سيفه ، تراجع مرتبكاً فقفزت عليه مرة أخرى أضربه على يديه ، ان هي الا ثوان وكان السيف في يدي .. شعر بالذعر وكاد يصرخ ، لكني بضربة هائلة في وجهه بقبضة السيف فسقط نازفاً و عاجلته بضربة أخرى على مؤخرة رأسه فانهار مغشياً عليه ..
الآن المرحلة الثانية من الخطة ..

أخرجت رأسي اتابع الممر بين الزنازين .. لا يوجد أحد كما توقعت .. الحراسة ضعيفة جداً هنا ولا يبدو أن هذه القلعة معدة أصلاً كي تكون من السجون .. تحركت في الممر مهرولاً حتى وصلت الى منحنى هام .. أعرفه منذ اليوم الذي قدمت فيه .. هناك اثنين من الجنود ذوي الملامح الغريبة يجلسون ببنادقهم عند هذا المنحنى .. منه يمكن التحرك نحو أحد أسوار القلعة المطلة على المدينة ..

ظللت واقفاً للحظات .. ببطء شديد أخرجت رأسي لأراقب الموقف فوجدتهما فعلاً في نفس الموضوع جالسين في استرخاء .. انه الوضع الذي تمنيته !

اندفعت فجأة أركض نحوهم ، اعتدل الأول منهم في دهشة وذعر وهو ينبه زميله لكني قذفت السيف نحو قدمه فصرخ متألماً .. ولم يكد الجندي الثاني يعتدل في ذعر حتى عاجلته بلكمة عنيفة وأنا آخذ منه بندقيته أثناء سقوطه ..

لم أتوقف طبعاً .. الخطة كلها معتمدة على العمل قبل الإستفاقة .. اندفعت بسرعة هائلة نحو السور واعتليته .. لا مجال للتفكير .. دوت طلقة بندقية الجندي الأول محاولاً اصابتي بينما أخرج الثاني خنجره وقد أفاق من الصدمة وركض محاولاً طعني قبل أن أقفز .. المفاجأة التي أصابتني لثوان أن السور يطل على البحر لا على المدينة ! لقد جاءت فرصة ملامستي لهذا الأزرق المخيف بصورة مفاجأة لم أكن مستعداً لها على الاطلاق ..

طلقة أخرى بجوار قدمي .. الجندي ذو الملامح الغريبة يقترب .. يصرخ بلغته العجيبة ليحاول جذب انتباه باقي الحرس على ما يبدو ..

لم يكن هناك مجال للتفكير .. قفزت في الماء ..

وياللهول الذي شعرت به منذ كنت في الهواء أطير نحو البحر وحتى لامست سطحه البارد ! مشاعر مذهلة .. شعرت أني أغرق في البداية .. كنت لا أعرف كيف أتعامل مع الماء .. أين الأرض ؟

برغم هذا فيمكنني بأريحية أن أشكر نجاتي من هذا الموقف بعد الله إلى حكايات بعض النجديين العائدين من البحر ، ضربات في الماء باليد و محاولة ثبات فتحرك .. حاولت

محاكاة الحكايات .. عامة الشاطئ على بعد عشرة أمتار و الأمر لا أظنه صعباً .. بمجرد أن قمت بتثبيت نفسي و التحرك للأمام وجدت بعض صخور يمكن الإستناد عليها حتى الشاطئ .. لا أعرف كيف لم أضرب رأسي بها أثناء القفز !
وصلت الشاطئ .. كان حرس القلعة قد بدأ فعلاً يخرج من البوابات .. الليلة مقمرة بل هي بدر في تمامه ! كالعادة أنسى مثل تلك التفاصيل بغبائي !
ما ان لمست قدماي الشاطئ حتى رحت أهرول بلا توقف .. كان الإعياء يدمر جسدي لكن التوقف يعني الموت .. انهم يبحثون عني في المياه ولم ينتبهوا أنني قد خرجت .. انها فرصة العمر..
رحت أهرول حتى دخلت الى حزام من النخيل والاشجار .. عبرته بسرعة وأنا ألهث في عنف .. كنت امسك بخنجري وشعري الأسود يتهدل وكل جسدي في حالة رثة من البلل والارهاق والقتال ..
ما ان انهيت حزام الاشجار والنخيل الكثيف حتى وجدت على ضور القمر شاباً في منتصف العشرينات يدور حول نفسه مفكراً في شرود .. كان يرتدي عباءة سوداء مزركشة قليلاً فوق قفطان أبيض محاط بحزام مزركش وسطه خنجر ذهبي فاخر ..
ما ان انتبه الي حتى نظر لي في دهشة وذهول .. بالتأكيد كانت صدمة قوية له أن يجدني بهذه الهيئة المخيفة أخرج له من وسط الأشجار الكثيفة وسط الظلام !
رفعت خنجري في وجهه وقلت لاهثاً في اعياء :
- لا تخف .. لن أؤذيك .. فقط أطلب منك أن تدلني على طريق للهرب خارج مسقط ..
ظل للحظات ينظر لي بنفس الدهشة ، قبل أن يتمالك نفسه ويسألني في فضول عجيب :
- لهجتك ليست عمانية .. و لا تبدو من القواسم أعدائي .. من أنت يا فتى ؟
شعرت بضيق هائل .. ألا يخاف سلاحي وهيئتي ، هززت خنجري في وجهه مهدداً وقلت في غضبة أخرجت فيها آخر ما أمتلكه من قوة :
- اسمع .. دلني على طريق للهروب والا قتلتك ..

بدا على وجهه استخفاف غريب وتلاعبت ابتسامة على فمه وهو يقول في هدوء :
- أجبني أولاً .. هل أنت سبب هذه الجلبة القادمة من جهة القلعة ؟
نفد صبري .. ما هذا البرود ؟ هتفت به في غيظ والألم يعتصرني :
- نعم أنا .. وصدقني عندما أقول لك اني سأقتلك ..
سألني بنفس الفضول ولكن بجدية تامة هذه المرة :
- هل استطعت الهرب من القلعة ؟ ألهذا كان هناك صوت طلقات نارية ؟
هل أضربه وأرحل ؟
انه مصر على استفزازي .. مصر على اجابتي بأسئلة شديدة الفضول متجاهلاً سلاحي ! هل وقعت في يد مخبول ؟
نظرت له في ضيق وألم .. قلبي لا يتحمل هذا اللهاث .. الماء البارد بدأ يصنع دوامات في عقلي .. رحت أحاول تهديده وأنا أحرك الخنجر بوهن شديد في الهواء .. سقطت على ركبتي ممسكاً بصدري .. أصبحت غير قادر حتى على مواصلة الحديث .. رأيته يقترب وهو يقول مبتسماً في سخرية :
- أنت صاحب أسوأ حظ رأيته في حياتي ، هربت من القلعة الى قصري ؟! قصر السلطان (سعيد) !

٥

أيام عصيبة تلك التي قضيتها بعد وقوعي في يد السلطان سعيد ..
تحقيقات كبرى أجراها للجميع ، لحامية القلعة التي هربت منها ، لحراس منزله الصغير المُطل على البحر ، وهو أحد مقرات الاقامة المتعددة في مسقط والمخصصة لراحته بجوار قصر الحُكم ..
كان في حالة دهشة من قصتي التي رويتها له عندما أفقت ، استدعى نُعمان واستفسر منه عن الكثير وأكد له نُعمان على مصداقية كل ما ذكرت ..
ومع نُعمان عرفت ما غاب عني ..
لقد أنقذني ثويني من مؤامرة في الأيام الأخيرة قبل وصولي الى مسقط ، ثلاثة جنود كانوا قد اتفقوا على قتلي ثأراً من غارات النجديين على قراهم ، طردهم من الجيش وتوعدهم بالقتل ان مسوني بأذى ، للأسف تسبب هذا الفعل في زيادة عدد الكارهين لي ، فحاول (ثويني) تجنب لقائي حتى لا يُهيج أي مشاعر حقد وغلّ جديدة ..
وماذا عن حبسي في القلعة ؟
هكذا سألت (نُعمان) ..
هنا رد السلطان في هدوء بأن (ثويني) قد جاءته الأوامر وهو في الطريق أن يتجهز للرحيل فوراً الى جلفار ، لهذا فهو يعتقد أن الرجل أراد حبسي ليحميني من المجموعة المطرودة حتى عودته الى مسقط .. ويعتقد السلطان بأنه بالطبع لم يكن بمقدور (ثويني) أن يُعرفني على أسرته أو يُبقيني في منزله ..
أسقط في يدي .. لماذا أشعر بالحماقة في أفعالي طوال الفترة السابقة ؟
هل ألوم نفسي على اساءة الظن ؟
لا ..

ليس من المعقول أن يؤذيني أحدهم بشكل ما دون أن يقدم أي تفسير ثم يغضب مني ان أسأت الظن فيه أو قاتلته !
مع ذلك يبقى في القلب حزن على الرجل ، ألهذه الدرجة يحاول مساندتي ويخاف علي برغم انه لا يعرف أي شئ عني ولا عن طباعي ؟
ألهذه الدرجة فقدان ابن في الخامسة عشر أمر يُدمر الأب ؟
رجل مقاتل وقائد جيش ، مشهور بالقسوة عند جيشنا النجدي ، يتعامل بكل هذا الحنان الخفي على جندي مأسور من الأعداء ، لا لشئ الا لأنه يُذكره جداً بابنه الرحل !
اذا كانت هذه مشاعر قائد جيش تعود القتل والاغارة ، فكيف تكون مشاعر أي أم تفقد ابن في مثل سني ؟
طفت في أرجاء نفسي حائراً بين مشاعر وأفكار عديدة ..
أمر السلطان أن أصحبه الى احدى غرف منزله المخصص للضيوف ، وكان يقابلني مساءً عندما يأتي الى الراحة والتفكير في بعض الشئون ، فكثيراً ما كان يحب ترك قصر الحكم الى منازله الصغيره الموجودة على الساحل ..
كان شخصاً شديد الجدية ، يستمع الى أفكاري صامتاً ويتدخل لتصحيح بعض المعلومات عن حروب نجد معه ، كان يحمل عداوة شديدة لأطراف كثيرة بجوار السعوديين ، وكان قد أذن لنعمان بزيارتي متى شاء ..
أسرتني قوة شخصية السلطان سعيد ، شاب أسمر هو له لحية غير كثيفة ووجه بيضاوي طويل وسيم ، في السابعة والعشرين .. مع ذلك ما رواه لي (نعمان) عنه في الأيام التالية كان مذهلاً ويتعدى الخيال !
لقد كان (سعيد) يقاتل من أجل عرشه بكل قوة وهو في الثانية عشر !
ورث عرشه عن أبيه لكن الشرعية لم تكن كلها له ، لأن هناك أقارب ورجال كانوا نافذين وأقوياء يطمحون لخلافة أبيه ، لذا دارت معارك طاحنة ، حتى اذ وصل (سعيد) الى مثل سني تقريباً كان يحارب عدة جبهات في وقت واحد بشراسة وقوة لا مثيل لها !

أسرني هذا النموذج .. هذا تكذيب عظيم لكل من كان يربط السن بالقوة والقدرة على حسم الأمور .. لقد شعرت بجواره أني طفل صغير ..
لكن كم من أفكار تفجرت بداخلي عندما روى لي نعمان حوادث حصول (سعيد) على ملك أبيه ..
هل من حق أحد أن يورث أبناءه شعباً كاملاً فيه عشرات العقول والامكانات ؟
نعم لم ننجو في نجد من هذا .. لكني لم أفكر في هذا الأمر الا الآن ، عندما استمعت لحكايات المعارك والاقتتال الداخلي العنيف الذي جاء من كل الرجال الذين رفضوا أن يرث طفل لم يتعدى الحادية عشر مُلك سلطنة عُمان كلها لا لشئ الا لأنه ابن فلان !
هل هذا من الاسلام في شئ ؟
مستحيل أن تقبل أمة عاقلة أن يتعامل معها حاكمها على أنها متاع يمتلكه ويورثه لأي شخص دون استشارة الأمة بأكملها !
كيف تقبل أمة عاقلة أن يكون حاكمها هو المتحكم في أمر تنصيب نفسه وغيره ؟
الصحيح أن يشعر الحاكم بقدرة الأمة العاقلة الدائمة على خلعه بكل سهولة ان أخطأ وتولية غيره .. لابد أن نبحث عن آليات اسلامية تعطي الأمة القدرة على عزل وتولية حُكامها بكل بساطة و يسر ، لابد أن لا يُصبح الحاكم هو فرد واحد ، بل أن يصبح الحاكم مجموعة كبيرة تختارها الأمة العاقلة .. أما الأُمة التي يحكمها رجل واحد يورثها لأطفاله دون أن تثور عليه تحت دعوى قانون الملوك والوراثة ، فهي أمة غافلة لا تملك من العقل شئ .. أمة لا تعرف عن الاسلام شيئاً مهما ادعت تطبيق تعاليمه ..
في هذه الأيام رحت أبحث في عشرات المراجع الاسلامية والتاريخية التي تحكي عما فكرت فيه سراً ، كان في قصره مكتبة كبرى سمح لي بالولوج اليها واختيار ما أشاء ثم العودة الى منزله الآخر لأقرأ وأفكر ..
الحقيقة أنه كان سلطاناً متسامحاً معي .. انه يحب (ثويني) بالفعل وأعتقد أنه أعجب بشخصيتي وقوتي وأثر فيه مشهد لقائي معه ..

لكن الأمر ليس له علاقة بالأشخاص .. الأمر له علاقة بالحق .. والحق فقط .. حتى لو كتمت هذه الأفكار بداخلي .. فعلي أن أفهم وأتعرف على الحق في مسألة (المُلك) هذه ..
بحثت كثيراً في تاريخ الخلافة والملوك .. كثيراً ما كانت الصراعات بين العقلاء والأقوياء الطامحين للسلطة ، وبين الملوك الورثة الموجودين في السلطة .. وهالني أن التاريخ كان ينتصر للملك الغالب في النهاية ! لا ينتصر للحق ! التاريخ يكتبه الملك المنتصر في أحيان كثيرة .. طبعاً .. إذ كيف يكتب المهزوم الحقيقة ورقبته معلقة على حراب الغالب ؟!
العجيب أنه دائماً ما كان يتم الاشارة الى اطماع من حاولوا الحصول على السلطة الى أنها قادمة من نفوس خبيثة ماكرة بينما ذلك الموجود على كرسي السلطة بغير رغبة الأمة هو صاحب الحق الذي لا يحمل أي مطمع !
هكذا كان يحكي لي نُعمان عن (سعيد) بفخر .. كيف دافع عن كرسيه ضد أطماع من رأوا عدم أهليته !
للمرة الأولى اشعر بأن من الخطأ على من هو في سني أن يقع في مثل تلك المعارك والصراعات .. نعم اطالب بتقدير من هم في سننا .. لكن أن ندخل في صراعات مع رجال أكثر عقلاً وخبرة على كرسي الحكم بحجة أن هذا ارث والدي ؟!
أين الأمة من هذا الصراع ؟ أليس هذا الكرسي هو حقها في الأصل ؟ لقد اختار الخلفاء الراشدون عدة أساليب لاختيار الحاكم عن طريق الأمة ، فشعر كل فرد فيها بأهميته وأهمية دورة ، حتى تعاظم هذا الدور الى الدرجة التي أدت لمقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه .. لقد تجاوزت الحرية في العزل والتولية كافة الحدود أيامها ، حين شعرت أقلية ما بأن من حقها فرض رؤيتها ورغبتها على الأمة بأسرها !
فلماذا لا نفكر في أسلوب يمنع الملك بأنواعه ، ويمنع تولية من لا تختاره الأمة ، وفي نفس الوقت يضمن بأن لا تأتي أي أقلية فتطعن في شرعيته ؟
أسئلة كثيرة طافت في رأسي ، مر شهر كامل وأنا أبحث وأُنقب ، نعم كنت شديد الاعجاب بالسلطان الذي توطدت علاقتي به كثيراً من الزيارات المسائية ، لكن الأمرعندي لم يكن

يحمل أي اتجاه شخصي ، بل هي المرة الأولى في حياتي التي أبدأ فيها بالتفكير على مستوى الأمة كلها لا على مستوى نجد و من حولها من أعداء !

تبقى المشكلة الكبرى ، هي كيف تناقش هذه الأفكار في بلد ملكية ، دون أن تطير رأسك بعد خمس دقائق فقط من طرحها ؟

سمح لي يوماً بالخروج الى أسواق (مسقط) المذهلة في تنوعها ، بين عرب عمانيين ، وزنوج و بلوش و هنود عرفت أن ذوي الملامح الغريبة في القلعة هم جنود بلوش وهم طائفة من بلوشستان المجاورة للهند وهي تابعة لسلطان عمان ..

لم تكن هناك مشكلة في رؤية هؤلاء ، المشهد الغريب حقاً كان تواجد عشرات من الجنود البيض ذوي الملامح التي أراها لأول مرة في حياتي !

سألت (نعمان) عنهم فأخبرني بانهم جنود إنجليز يتواجدون في (مسقط) لأن السلطان مُتحالف معهم حالياً !

ازدادت علامات التعجب في رأسي .. سبحان الله .. أيتحالف مسلم مع كافر وفي نفس الوقت يحارب مسلم مثله ؟!

أي هوان هذا .. ما هي الأرض والدنيا التي تستحق أن نتصارع من أجلها الى هذه الدرجة ؟

زاد اصراري على فكرة أن تختار الأمة حاكمها .. ليس عندي أدني شك في أن الأمر لو كان في يد أمة المسلمين لا ملوكها ما اختار أهل الملة أن يتقاتلوا مع بعضهم البعض ويتحالفوا مع الكافرين ..

مرت أيام وأنا في حيرة أكثر ..

لماذا لا تهتم الأمة وعلماءها بوضع نظام للحكم يرفع من تحكم الأمة في اختيار حكامها ومحاسبتهم ؟

هل عجز العلماء السابقون و الحاليون عن هذا أم أن هناك الكثير منهم فكر وحاول لكن تم وأد مساعيه في مهدها بقتله أو اخراجه من طائفة العلماء ؟!

هل فكر الكثيرون مثلي لكنهم قارنوا بين مفسدة جهرهم بهذه الأفكار الخطيرة المهلكة ، ومصلحة بقاءهم علماء يعلمون الناس فروض دينهم ، فاختاروا الأكثر سلامة ؟

هل العلم هو نشر فروض الصلاة وسننها ومظاهر ديننا فقط ؟

أليس من العلم النافع البحث والتحري عن نظام حكم اسلامي يمنع تماماً الطغيان ويحفز الثورة عليه ، ويطور في أنظمة الخلافة التي أبدعت لنا أفضل سنوات الحرية والتوسع في تاريخ الاسلام ألا وهي سنوات الخلافة الراشدة ؟

كيف انحصر العلم في كل شئ الا هذا ؟ كيف استطاع الملوك والطغاة في كل زمان ومكان أن يقضوا على انتشار أي فكر يوقف طغيانهم ويثير الشعوب عليهم ؟! هل الخطأ منهم أم من العلماء المتتاليين الذين استسلموا للأمر و للواقع المرير ولدخول الأمة من جملة مواريث الملوك ؟

كيف رضى العلماء الأقدمون بهذا ؟

وكيف لا يسعى العلماء المعاصرون الى إصلاح ذلك العجز ؟

أكثر من هذا ..

هل يعتبر كل من خرج على هؤلاء المستبدين .. خوارج ؟!

٦

"هل ترغب في الذهاب الى جلفار ؟ "

اشتعلت حواسي كلها فجأة ، اعتدلت منتبهاً الى السلطان سعيد الذي سألني وعلى وجهه ابتسامة ، لما لم يجد رداً مني أكمل :

- أنا خبير في النفوس .. أعرف مدى ضجرك في الانتظار .. هناك شئ ما بداخلك يا (راكان) لكني لا أعرفه ..

ما رأيك في الذهاب الى (ثويني) هناك في جلفار كي تغير من هذه الرتابة ؟

الحقيقة أنني احتاج للخروج من هذا القفص الحريري فعلاً .. لقد جئت الى هنا ولا أعرف ما الذي يريده هؤلاء مني بالفعل !

ما الذي كان يريده ثويني حقاً ؟ ما الذي يريده السلطان حقاً ؟

لا أظن أنني شديد الجاذبية هكذا حتى يُصادقني الملوك والقادة فوراً !

كنت أسمع أن أهل (عُمان) في طبعهم الضيافة واللين في الترحيب لكل غريب .. لكن هذا الذي أراه زائد عن الحد بصراحة !

قلت بعد تفكير قليل :

- هذا كرم منك يا سلطان .. لكن ما الذي بامكاني فعله هناك ؟

تراجع السلطان الى الوراء وهو يقول مبتسماً في سخرية :

- لقد صنعت ثورة في قلعة هادئة لم نسمع فيها طلقات نارية منذ زمن ، فهل تخبرني بأنك لن تجد اثارة في حرب بحرية وبرية دائرة على أشدها هناك ؟!

- لكن ما دوري ؟ أنا لست جندياً في جيشك ولن تكون لي أية صفة !

شبك السلطان أصابعه وقال :

- ألاحظ شغفك الشديد بمعرفة التاريخ والقراءة فيه .. يعجبني هذا وأجده أمر شديد الندرة هذه الأيام .. اننا في واحدة من أحلك وأعقد فترات الجزيرة العربية والكل مشغول بالقتال ! في نجد يدور القتال بين قومك وبين جيوش محمد علي وفي عمان يدور القتال بيننا وبين بعضنا وبيننا وبين قومك وبيننا وبين القواسم ! ان جزيرتنا فقط تشهد حوالي أربع حروب متشابكة ومعقدة ، الجزيرة كلها مشغولة كخلية نحل نشطة .. لكن بالحروب !

لماذا لا تكتب تاريخ هذا الزمان ؟

سأجعلك مؤرخاً له صلاحيات كاملة في رؤية أي مكان تحبه .. أنا محب للتاريخ ويؤلمني تجاهل الجميع له .. والمهتم به من أهل بلادي كثيراً ما ينافقني فيما يعرضه علي أو يشنع علي من ورائي !

أؤمن أن أفضل كاتب لتاريخ قوم بحياد هو شخص من غير هؤلاء القوم تماماً ولا يعرف شئ عن تاريخهم ..

لهذا أطلب منك هذا الطلب .. فهل أنت قادر عليه ؟

ظللت صامتاً أفكر لفترة طويلة ، هذا أول عرض مفصل يجيب عن بعض تساؤلاتي حول لقاءات السلطان معي ..

وياله من عرض مغر ..

لكن ياله من عرض صعب أيضاً !

هل يقبل مني تجريحاً فيه وفي تاريخه ان أخطأ ؟

هل أضحي يوماً بكل ما سيعطيني اياه مقابل كلمة حق في وجهه ؟

ان الحديث المثالي بدون اختبار أسهل الأمور .. لكن المشكلة كلها في حديث ما بعد الاختبار .. فان رسبت فاما أن أكون كاذباً ووقتها قد أبرر لنفسي ولغيري رسوبي .. واما أن أعرف دناءة ما فعلته فأصمت مخذولاً مدحوراً لباقي العمر !

لما رأى التردد على وجهي انقلب وجهه فجأة ! وجدته يقول في حزم شديد بلهجة شبه آمرة :

- قد يبدو ما أقوله لك عرضاً يا (راكان) .. لكن ما أقوله سيُنفذ بلا نقاش .. في النهاية لا أحد على هذه الأرض سيخالف ما أطلبه !
نظرت اليه مبهوتاً ! انها المرة الأولى التي أرى على وجهه هذه الصرامة وأسمع من لهجته هذا الحزم الآمر !
لقد أنساني حديثه الدائم معي أنه سلطان ابن سلطان .. نسيت أنه تعود الأمر والنهي بلا نقاش وخضوع الكل له منذ الصغر .. هؤلاء السلاطين والملوك قد يصبحون أصدقائك نعم لكنهم ذوي أمزجة متقلبة ، ولا يثيرهم شئ قدر أن تبدي تردداً في الخضوع !
أجبت بصوت يحمل ضيق شديد :
- أوافق طبعاً ..
نهض السلطان الشاب وقد عاد الى ابتسامه قائلاً :
- كنت أعلم أنك ستوافق ! جهز نفسك للرحيل غداً ، سترحل ثلاث سفن محملة بالجنود الى هناك ..
تركني وذهب .. كانت نفسي تموج بثورة كبيرة ، كيف أكتب تاريخاً محايداً ، وأنا مُجبر على كتابته أصلاً !!
أما أكثر ما أثار ضيقي هو رد فعلي أمامه !
انني قادر على مقاتلة عشرة رجال مثل (سعيد) بشجاعة وبلا خوف .. لكن هناك نوع معين من الشخصيات القوية النافذة ، يصاب أي صنديد أمامها بالرهبة !
كنت أتخيل نفسي أكثر صلابة من هذا ، وشخصيتي أقدر على المجابهة من هذا ..
لكن للأسف .. اكتشفت أنني شخص عادي .. ترهبه الشخصيات القوية النافذة !
***
ثلاثة أيام مرت علي في البحر ..
هذه المرة الأولى التي (أركب فيها البحر) فعلاً ..
ويالها من مشاعر وأحاسيس تلك التي راحت تتفجر في أعماقي ..

لن أخوض في هذا الأمر كثيراً ، فهذه المشاعر تأثيرها أقل بكثير من تأثير (القبطان برغش) !

(القبطان برغش) هو بحار عُماني عجوز .. شديد النشاط طوال اليوم ، ويجلس في المساء عند مقدمة السفينة يدندن ببعض أناشيد بحارة عمان ، يحب بعض البحارة صغار السن مجالسته مساءً وهو يملك آلاف القصص والحكايات عن تاريخ عمان والمدن الواقعة بداية من الهند حتى جزيرة مدغشقر !

مُقاتل قديم هو ، لم يتزوج ولم يعرف غير البحر ، حياته كلها عبارة عن الانتقال من سفينة الى أخرى ، وتاريخ عمان البحري شديد الاثارة ولم يتوقف لحظة واحدة ، مما منحه أعواماً عديدة من المغامرات الشيقة على ظهر السفن ..

كان لي حديث قصير معه ذات مرة ولله الحمد كان مرحاً بشدة معي ، خمنت أن هذا بكل تأكيد جاء بعد أوامر خفية من السلطان لكل طاقم السفينة بأن يحترمني .. فالكل بالفعل يتحاشى فعل أي شئ يغضبني .. وكذلك فعل أي شئ يسعدني !

لا صداقات هنا .. احترام وتقدير فقط .. لكن تحفظ في التعامل مع شاب مثلي بحاجة في أحيان كثيرة الى المرح ..

لهذا جاء (القبطان برغش) كتسلية غالية الثمن لي ، لا يكف عن اطلاق النكات الذكية المضحكة عن أهل نجد وبني تميم وأفعالي في السفينة ولا أكف عن الضحك برغم تجاوز هذه النكات عن قومي الحد اللائق أحياناً !

لكن ما العمل ؟ اما هذا واما العزلة .. وأنا مللت من العزلة ..

ذات يوم اقتربت منه وجلست بجواره ، كانت هناك قضية كبرى تشغلني ، انني ذاهب الى جلفار .. فما هي جلفار يا (قبطان برغش) ؟

للمرة الأولى أجد هذه النظرة في وجهه ، اختفى المرح وقال في جدية تامة وهو ينظر الى البحر :

- جلفار.. موطن القواسم .. الرعب الأحمر لأي سفينة تسير في محيط الهند ..

التفت إلي وقال بينما عيناه تتسعان :
- تخيل يا تميمي .. أن الانجليز سادة الأرض حالياً .. يصابون بالرعب والهلع ان شاهدوا راية القواسم على احدى السفن !
لهذه الدرجة ؟!
كنت أعرف القواسم كمقاتلين بريين متحالفين معنا في نجد .. لكني للمرة الأولى أتعرف على هذه الجانب منهم !
قراصنة بحار !
لما رأى نظرة الشك في عيني تابع قائلاً :
- لك كل الحق ان رفضت تصديق هذا .. لكنك لا تدرك مدى خطورتهم .. انهم يتحصنون بجلفار هذه وينطلقون منها لاخضاع أي سفينة يوقعها حظها العاثر في طريقهم ! سفن تجارية انجليزية ، أمريكية ، فرنسية .. وللأسف أحياناً ما تكون عمانية !
يمتلكون جراءة وشجاعة عجيبتين ، تخيل أن تهجم على سفينة حربية انجليزية دون تقدير لأي عواقب ! الغريب أن مثل تلك الهجمات الخارقة المجنونة تنتصر في أحيان كثيرة !
انجلترا منذ سنوات طويلة وهي تعاني الويلات من القواسم وقرصنتهم .. وكلما شنت حرباً عليهم ودمرتهم يقومون ببناء أنفسهم بسرعة غريبة ثم يعاودون القتال بنفس الجرأة والشراسة وعدم تقدير العواقب !
لهذا قرر السلطان سعيد القيام بهذه الحملة للقضاء عليهم مع الانجليز !
انقبض قلبي فجأة مع الجملة الأخيرة !
سألته بصوت متهدج :
- هل تقصد أننا ذاهبون الآن كي نجاور الانجليز في هجومهم على القواسم ؟!
- نعم .. الانجليز أصدقاء السلطان .. ومصلحتنا واحدة !
نهضت بلا تعليق .. شكرته وذهبت مترنحاً الى قمرتي !
يالظلام زمنك يا راكان !

(مصلحتنا واحدة!)
على من تعود (نا) هذه ؟
أليس من المفترض أن (نا) لا تعود عند المسلم الا لمسلم غيره ؟
أي مصلحة تقتضي أن أتحالف مع صليبي للقضاء على مسلم آخر ؟!
ما هي (المكاسب) التي ستعود علي ان قضيت على القواسم بمساعدة عدو المسلمين ؟!
أرض .. جاه .. ملك ؟
ماذا عن يوم القيامة ؟
هل يعيش المسلم من أجل دنياه أم من أجل آخرته ؟
فان كان يعيش من أجل دنياه فله أن يتحالف مع من يشاء .
أما واننا نعيش من أجل آخرتنا ، ودنيانا كلها عمل مستمر من أجل الاستعداد ليوم الحساب العظيم ، فكيف يجروء مسلم موحد على موالاة أهل الكفر ضد أهل التوحيد ؟!
لكنه حال المسلمين المؤسف .. حال عصرك يا (راكان) الذي جعل الأخ يستعين بقاتل أبيه لايقاف ازعاج أخيه !
هل هذا مرتبط بما فكرت فيه سابقاً من غياب حرية الأمة في اختيار حكامها ؟
الحقيقة أنه بلا شك هذا الحال المزري المثير للاشمئزاز لم يكن يرضى به المسلمون ولم يكن أي منهم ليختار حاكماً يوالي أهل الكفر لضرب أهل الايمان .. لكنه الجبر ..
ملوك يفعل كل منهم ما يشاء دون رقيب .. خرجت الأمة من المعادلة في اختيارهم فأوقعها كل حاكم شاذ الفكر منهم في شبكة أطماعه وتوسعاته لملك أبيه وأبنائه ! هكذا يصبح عدم قدرة الأمة على اختيار حاكمها هو نفسه المسبب لفرقتها وتشرذمها ومقاتلتها بعضها البعض وذهابها الى أكثر الأمور تطرفاً وبعداً عن الاسلام مثل مصادقة الكافرين وموالاتهم !

ان صلاح هذه الأمة من صلاح ولاتها ،وصلاح ولاتها سيكون بصلاح نظام اختيارهم من قبل أمتهم .. وصلاح هذا النظام سيكون بصلاح علمائها وانتباههم لضرورة التصدي للطغيان المرير بابتكار كل الوسائل الممكنة لمنعه ..

هكذا كان قراري الذي اتخذته مساء اليوم شديد الخطورة :

سأساعد القواسم ضد الانجليز في جلفار ، وساعمل سراً لافشال حملة أعداء الله ضدهم مهما كان الثمن ، ومهما كان قربي من جند عمان طوال الفترة الماضية أشد .. الحق أحق أن يتبع .. ولو فعلها أبي لقاتلته ، فموالاة الكافرين خيانة ، لا يرضاها الا مخذول ..

٧

لن أطيل في وصف حجم المفاجأة التي أصابت (ثويني) وهو يستقبلني في قمرته باحدى سفن الاسطول العماني الحربية ..

لقد كان الأمر أشبه بالصاعقة .. ظل لوقت طويل يستمع لي وأنا أشرح ما حدث وألومه على اعتقالي دون اظهار السبب وكيفية هروبي و .. و..

ظل صامتاً طوال الوقت !

في النهاية رفع رأسه قائلاً لي وهو مازال مصاب بارتباك غريب :

- حسب أوامر السلطان أنت منذ الآن حر يا (راكان) .. سآمر باعداد قمرة خاصة لك بعيداً عن صخب الجنود .. ولنتحدث فيما بعد !

لا يريد النقاش معي الآن ؟

لا مشكلة .. لابد أن أقدر حجم المفاجأة التي ألجمته عن الحديث ..

بداخلي أمور عديدة أحتاج للتفكير فيها ..

احتاج الى الخلوة حالياً ..

****

مرت ثلاثة أيام .. قصف متبادل بين سفن عمان المتحالفة مع سفن الانجليز ضد سفن القواسم ..
حصار بحري متين للغاية على أهل جلفار القواسم ..
(ثويني) مشغول عني تماماً .. من الواضح أنهم يجدون صعوبة بالغة في استمرار الحصار ..
المرة الأولى في حياتي التي أتابع فيها معارك بحرية كهذه ..
القواسم بالفعل مذهلين .. يملكون سفن حربية محصنة بمدافع قوية .. صحيح أن الانجليز يتفوقون على الجميع هنا لكن القواسم عندهم براعة غير عادية على الظهور والاختفاء والمناورة ..
ما دوري وسط هذا ؟
لقد ظللت أفكر في كيف أساعد المسلمين المعتدى عليهم من الانجليز ..
صحيح أنهم يبلون بلاءاً حسناً جداً .. لكن لابد أن أفعل شئ ..
وفي ذلك اليوم جاءت الفرصة ..

***

كان هناك ضرب عنيف في القواسم .. سفينة حربية انجليزية صغيرة يبدو أنها صنعت معجزة بتدمير سفينتين للقواسم أكبر حجماً ..
طاف في ذهني عشرات المشاهد لجنود مسلمين يحترقون .. كل هذا الجحيم الذي صنعته تلك السفينة الصغيرة بطاقمها !
الآن أنا على دراية بما يجب علي فعله ..
المهم : كيف أفعله ؟

***

أخيراً وجد (ثويني) بعض الوقت لمناقشتي .. كان من الواضح انه تغلب علي الصدمة بل قد نسى بعض الأحداث التي حكيتها له بسبب تتابع المعارك ..
كان محور نقاشي معه عن السلطان سعيد !

كان متعجباً للغاية من كرم سعيد معي .. لكنه أرجع ذلك لشغف سعيد الكبير ببطولات الشباب .. هو شاب شكك الكثيرون في قدراته على الحكم منذ زمن طويل وقد قضى سنوات طويلة يثبت حماقة كل من أدعى هذا بل وقضى عليهم جميعاً !

انني أشبهه برغم كل شئ .. ما عدا أنه - طبعاً - سلطان !

كان (ثويني) سعيد للغاية في الحوار الأخير .. كان يشعر بانني حصلت على مباركة السلطان الآن وأنه بسهولة يمكن أن يصطحبني معه في كل مكان ..

هل أناقشه فيما يشغلني ؟

هل أخبره بأني أعتبره خائن للأمة لأنه يقاتل المسلمين متحالفاً مع الصليبيين ؟ أذكره بكلامه المعسول معي يوم التقينا عن غباء قتال المسلمين بعضهم البعض و ترك العدو الأكبر ؟

لا .. مستحيل أن أفعل ..

ليس قبل أن أنفذ غرضي ..

ظللت صامتاً أتبادل معه كلام بسيط للغاية لا يدل على شئ سوى موافقتي له .. وترحيبي بأبوته !

عند المساء جاءت الفرصة ..

***

الكل نائم الآن .. الحراسة بسيطة للغاية عند مقدمة السفينة ..

السفن كلها اتخذت وضعاً يحيط بعضها ببعض .. الكل متأهب لهجوم غادر من القواسم على المقدمة ..

فماذا عن قلبهم ؟

هكذا تجدني أنزل من فوق الحبال المدلاة على جانب السفينة الخلفي ..

لم أضيع وقتي في مسقط سدى .. لقد أتقنت الفترة الماضية السباحة بصورة كبيرة بمساندة نعمان ..

هكذا أتحرك في الماء نحو السفينة الانجليزية الصغيرة القريبة منا .. اسمها يتردد في ذهني منذ الأمس : شالنجر .. سفينة الأبطال شالنجر !

هكذا اقتربت من السفينة الغافية .. صعدت على سلم حبلي خلفي .. لا حراسة هنا !

هناك حفل في احدى السفن الانجليزية الكبرى ! يحتفلون طبعاً بأبطال شالنجر ! والمسلمون المتحالفون يحرسون هذا الحفل !

الغيظ الشديد جعلني أتحرك بسرعة .. هل هذه السفينة لها نفس ترتيب سفينتنا ؟ هل يخبئون البارود في نفس الأماكن ؟

طبعاً نعم !

ما عرفته في الفترة الماضية قبل وصولي أن بعض سفن السلطان سعيد القوية هي هدية من الانجليز !

هكذا يعطون حلفائهم السفن الحربية ! لماذا ؟

نعم .. ثمن التحالف مع أعداء الله ضد المسلمين كبير .. فهنيئاً بالسفن الحربية التي صنعها لك عدو المسلمين !

هنيئاً لك بـ ..

(وات ذا .. ؟)

هكذا وجدت تلك الصرخة المندهشة من خلفي .. استدرت لأجد جندي بريطاني يرفع بندقيته سريعاً لايقافي على ما يبدو ..

لا وقت للتفكير .. مرة أخرى أنا ميت تماماً ..

تحركت بسرعة فضربت بندقيته لتسقط في المياه .. واضح أنه لا يملك قوة بدنية وهذا أصابه بالذعر عندما لكمته في وجهه بقوة ..

هل يلومني أحد ان قتلته ؟

هل أنجو ان لم أقتله ؟

لا وقت للتفكير .. لابد أن يموت هذا اللعين .. هو واحد ممن قاتلوا أهلي المسلمين في جلفار .. لو كان قد قاتل بني تميم أو قاتل العمانيين ما اختلف رد فعلي ولا عداوتي له .. هذا الذي أراه هو جندي صليبي جاء لقتل المسلمين ..

لا وقت للتفكير ..

هكذا تجدني أتحرك بسرعة نحو مخزن البارود ، بينما الانجليزي من خلفي جثة هامدة وخنجري في قلبه .. لا تغضب يا علج .. فقد جئت لتقتل المسلمين على أساس ان هذا عمل و (أوامر) من قادتك .. أما أنا فأعظم منك وأكثر تجرداً .. انني أعمل لأوامر إلهي نفسه .. لهذا قتلتك !

حمدت الله أني لم أجد شخصاً آخر .. وأنه لم يجد فرصة للصراخ ..

الآن أقوم بعمل خط طويل من البارود على الأرض .. آه لو يعلم القبطان برغش كم أفادني بحكاياته المسلية عن تدمير السفن و المغامرات فوقها !

أشعلت خط البارود وقفزت في الماء فوراً .. رحت أسبح بسرعة كالمجنون .. لا أعرف ما اذا كانت النيران ستقترب من سفينتنا أم لا .. لكن لا يهم .. بداخلي مشاعر مجنونة من السعادة !

وصلت للسفينة العمانية بسرعة .. صعدت على الحبال سريعاً ..

لأجد (ثويني) وجندي آخر في وجهي !!

كان (ثويني) يضع يده خلف ظهره وينظر لي في دهشة وغضب .. سألني عن سبب وجودي في الماء .. لم أرد طبعاً !

بالتأكيد رآني جندي الحراسة بشكل ما .. وبالتأكيد لم يرغب (ثويني) في صنع ضجة كبيرة .. أنا لم أتأخر فلابد أنني فاجأته بالعودة بينما هو يفكر فيما يصنع ..

أثناء ارتباكي وتوقفي عن الحديث .. دوى الانفجار الهائل لشالنجر !

قفزنا جميعاً الى الأرض .. الشظايا المشتعلة تناثرت على سطح سفينتنا !

على الأرض اثناء انبطاحي بجوار (ثويني) رفعت عيني ببطء فوجدته ينظر لي في ذهول ..

قال لي ببطء ومرارة :
- ماذا فعلت بنا وبنفسك أيها البائس المتهور ؟
رددت عليه ببطء ولكن بثقة هذه المرة :
- فعلت الحق .. فعلت ما أؤمن به !

٨

تحقيقات مجنونة أجراها الانجليز وقائد الاسطول العماني ..
عرفت أن انفجار السفينة (شالنجر) قتل خمسة من الجنود وظابط كبير ، كانو نائمين في غرفهم الداخلية !
هل يطالني التحقيق ؟
عدة جنود رأوني مع (ثويني) غارقاً في البلل وأنا أخرج من البحر قادماً من اتجاه السفينة (شالنجر) ! الحقيقة أنني مفضوح بلا جدال !
لكن مع ذلك لم ينبس أحدهم ببنت شفة في التحقيقات !
أين كان المدعو (راكان) ؟ كان نائماً في قمرته يا سيدي !
نفس الاجابة قالها الجميع !
السبب ؟
بعد تفكير بسيط عرفت السبب البديهي : كل جنود هذه السفينة من قبيلة السيد (ثويني) !
اذن ما قاله السيد (ثويني) عني سيتكرر بالحرف على ألسنة الجميع !
كذب ؟
لا يهم .. كثير من جند عمان أصلاً يكرهون الانجليز ويشعرون بضيق من مقاتلتهم بجوار هؤلاء (الكفار) كما يسمونهم .. لكنها (أوامر السلطان) الملعونة !

طبعاً غير الطبع القبلي .. أنا أنتمي الى قبيلة وأعرف ما معنى القبلية .. وهي من ألعن الطباع التي يمكن أن يقبلها مسلم على نفسه ، لكن ما حيلتنا والجزيرة العربية لم تستطع التخلص من هذا الوباء اللعين ؟!

هكذا تجد كل أتباع نفس قبيلة السيد (ثويني) يؤكدون أقوال كبيرهم مهما كانت كاذبة ! صدق أو لا تصدق من الممكن أن يخوضوا قتالاً عنيفاً دفاعاً عنه وعن أقواله هذه ! إنه كبيرهم هنا وبالتالي ما يقوله واجب النفاذ .. لا أحد يستطيع التحرك خارج نطاق قبيلته العربية بشبر والا فقد الكثير والكثير وأصبح كاليتيم المنبوذ !

لعنة الجزيرة العربية كانت دائماً هي القبلية المقيتة .. أوس وخزرج ؟ لا .. أنت لا تعرف شيئاً عن حروب القبائل في تاريخ نجد بالذات ! ستبدوا قبيلتي الأوس والخزرج كالأطفال الأبرياء في تعصبهم ! هنا الحروب القبلية مجنونة .. وأحياناً ما يكون المخطئ شديد الوضوح .. لكن كيف تخالف قبيلتك يا أحمق ؟!

أنا من قبيلة (تميم) .. وهي باعتراف العرب كلهم من أعز وأفضل قبائل العرب على مر التاريخ .. لكني مع ذلك الحق يقتضي أن أقول بصراحة أن القبلية عادة جاهلية .. لا يمكن لمجتمع مسلم أن يعرفها .. فالاسلام يعلو فوق أي رباط من أرض وقبيلة ولون وأصل .. لا يمكن لفقيه يضع في عقله أن فقهه لكل المسلمين في كافة أنحاء الأرض أن يبني بعض فتاويه على أسس (عرقية أو قبلية أو لونية) .. وفي هذا أعترف أنني كنت أصاب بضيق شديد من بعض فتاوى الأئمة القدماء التي كان بعضها يضع شروطاً للزواج أو الحكم فيها تفضيل لعرق ما أو قبيلة ما على عرق آخر .. لو كان هؤلاء الشيوخ في احدى الدول الاسلامية البعيدة تماماً عن العرب ورأو مثل هذا التصنيف لربما رفضوا الاسلام كله بحجة عدم المساواة ! و دين (لا فضل لعربي على أعجمي الا بالتقوى) برئ تماماً من هذا .. لهذا كانت حروب المسلمين الأول أغلبها بسبب تفضيل أعراق وقبائل في الحكم .. فرس يثورون ويدعمون بني العباس لإهانة مبدأ سيادة العرب .. اليوم ترك يحصرون الخلافة في المتحدثين بتركيتهم وفي جنسهم لسيادة العنصر التركي ! مسألة الأعراق هذه التي سببت

الكثير من خلافات المسلمين لا يمكن تحميل مسئولياتها لغير الفقهاء والشيوخ الذين دعموها في بعض فتاويهم الأول .. سأترك الإستطراد قليلاً .. لكن لابد أن يتفهم البعض فيم كنت أقضي وقتي و ماذا كان يشغل فكري .. كنت أعتقد نفسي مجنوناً في بعض الأحيان بسبب إنشغالي بأمور أخرى أكبر من واقعي الضيق ..

هكذا تجدني جالساً في غرفتي آمناً من أي أذى أطالع أحد الكتب بسكينة تامة ! برغم كفري بها فقد أنقذتني هذه القبلية !

طرقات على الباب ، ثم دخل السيد (ثويني) الى الغرفة .. حييته وجلس صامتاً يتطلع الى وجهي لثوان بلا أي حديث .. بالتأكيد أمامي استجواب كبير منه لكنني كنت قد جهزت اجابات عديدة ومتنوعة لكل ما سيطرحه !

- ألا تقدر ما تفعله يا بني ؟ في ظرف شهرين فقط غامرت بحياتك عدة مرات لمشاعر متهورة ! لا أعرف كيف نجوت من كل هذا بهذا الجنون الموجود بداخلك لكني أؤمن أن هناك سبباً ما يجعل الله ينجيك في كل مرة ..فهل هناك تفسير لهذه الخيانة الأخيرة ؟

- أنا لم أخنك يا سيد (ثويني) .. أنا فقط عاقبت أعداء الله على ما يفعلونه بمسلمي جلفار !

تراجع (ثويني) وقد اتسعت عيناه في ذهول ، قال لي منفعلاً :

-أعداء الله ؟! انهم حلفاء وبيننا وبينهم عهد ..

انفعلت انا الآخر قائلاً :

- لست أنا من تحالف معهم .. وعهد الله معي ومع كل مسلم يمنعنا من ابرام عهود مع هؤلاء المحاربين ..

- لكنهم لا يحاربوننا يا فتى ..

- ال(نا) هذه عائدة على كل المسلمين بالنسبة لي .. لقد عاهدت نفسي على مساندة أي مسلم في حربه مع غير المسلم .. ثم ألست أنت يا سيدي من كان يلوم قومي على مقاتلتكم بينما الأولى كان مقاتلة أعداء الله ؟ الآن أفاجأ بأنكم أنتم من تتحالفون معهم !

امتقع وجه (ثويني) وهو يقول :

-كنت أتحدث عن هجوم الوهابيين علينا أثناء مقاتلتنا للبرتغال قديماً ..
- وما الفارق بين البرتغال والانجليز ؟ دينهم واحد وأهدافهم في باطنها واحد.. إن كنتم تقاتلونهم كجهاد في سبيل الله فسيكون البرتغال كالانجليز لا فارق بينهما ..
انفعل (ثويني) مرة أخرى وهو يقول :
- أنت لا تفهم أي شئ .. هل تظن أن السعوديين بعيدون عن التحالف مع الانجليز في بعض المناطق ؟ هل أطلعك على تاريخ مراسلاتهم مع الانجليز ؟
- اذن تباً لهم أيضاً .. أنا لن أدافع عن أحد من أجل قرابة قبلية معه .. لست أنا من أفعل هذا يا سيدي .. وأقسم لك أني لو كنت معهم في نفس الموقف لفعلت نفس الأفعال .. لا خيانة أكبر من التحالف مع أعداء الله ضد المسلمين لقتلهم ..
- مسلمون معتدون يا بني ..
- في البداية والنهاية هم مسلمين .. من يقبل أن ترفع راية صليبية فوق أرض قوم مسلمين بحجة أنهم معتدون أو أي حجة أخرى يصبح هو نفسه أكبر معتد أثيم ! بل الفارق بينه وبين هؤلاء المسلمين المعتدين أن اعتدائهم كان على أفراد .. على بشر .. بينما اعتداءه كان على مقدسات الأمة .. على فرائض دينه .. على عهد ربه معه .. هو المجرم الحق .
صمت (ثويني) طويلاً هذه المرة وهو يحدق في قبل أن يقول :
- (راكان) .. ان المثل الاسلامية العليا التي تتحدث عنها لم تعد موجودة الآن .. لن أجادل كثيراً في نقاط لست شديد الاقتناع بها أنا شخصياً .. فقد حاربنا البرتغاليين سابقاً من منطلق الجهاد طبعاً.. وعليك أن تعلم أن أهل عمان قبل والد السلطان (سعيد) الحالي لم يكونوا ليقبلوا أي تحالف مع هؤلاء .. لكن التوازنات العالمية هي التي دفعتنا لذلك دفعاً !
لم أعلق هذه المرة فتابع بلهجة حاسمة :
- لكن عامة .. لم يعد من المقبول أن تظل هنا يا (راكان) .. أخاف عليك التحقيقات السرية التي يقوم بها الانجليز والتي قد ترشدها وشاية خائن .. وأخاف على جنودي كذلك أن يهلكوا بسبب أحد مغامراتك هذه ..

- وما الحل ؟ هل تقبل باعادتي الى نجد ؟
هز رأسه رافضاً بنفس الحسم وهو يقول :
- مستحيل ! نجد مشتعلة تماماً والدرعية تقضي شهورها الأخيرة قبل أن يهدم ابراهيم باشا كل شئ فوق رؤوس الجميع .. بمثاليتك هذه ستقضي نحبك ..
- سيدي .. هذه رغبتي .. أنا لست ابنك حقا !
- بل أنت هو .. نفس الأفعال المتهورة الحمقاء .. أنت لا تعرف حجم التشابه المثالي الذي تؤكده كل يوم بأفعالك هذه .. لقد فقدته يوم أعطيته الحرية الكاملة ليقاتل ويفعل ما يشاء .. و مرة أخرى أجد نفس القصة يتم اعادتها أمامي ! هل تظنني سأسمح لك ولنفسي بهذا التكرار ؟!
كان صوته قد بدأ يتهدج فجأة ، توقفت مبهوتاً أمام هذه الهزة النفسية المفاجأة ! مرة أخرى يثبت الرجل أنه ينظر لي بصورة لا عقلانية ليس فيها أي حزم عسكري!فقدان ابن قد يهز رجال لكن هذا على ما أعتقد واحد من أكثر الرجال المصابين في التاريخ الذي قرأته ! هذا رجل يتحرك معي بقلبه وقلبه فقط .. ماذا أفعل وكيف أرد له طلب ؟
ظل صامتاً للحظات ليستجمع قوته وحزمه ، ثم وقف وقد بدا أنه اتخذ قراراً هاماً :
- نجد مشتعلة .. التحقيقات الجارية قد تقود اليك ووقتها لن تنفعك عمان لأن السلطان (سعيد) قد يعاقبك بنفسه .. لقد قمت بسد كل الطرق هنا على نفسك ..
ثم رفع اصبعه وهو يقول :
- ما عدا طريق واحد .. أرض بعيدة مليئة بالمسلمين .. لكنها ليست داخلة حالياً في نفوذ الإنجليز بقوة .. والجميل أن السلطان قد طلب ارسال احدى سفننا الصغيرة اليها بغرض توصيل رسالة الى حاكمها العماني ..

لم أفهم عم يتحدث ، ما هي هذه الأرض ؟ هل يقصد بلوشستان القريبة من الهند ؟
- لا .. عالم جديد تماماً عليك ، ربما لم تسمع به من قبل ، زنجبار يا بني ، بر الزنج ..

٩

على ظهر السفينة (ظفار) ، و في ضوء المشاعل ، تحت سماء مرصعة بملايين النجوم اللامعة ، كنا جلوس حول العجوز المسلي (القبطان برغش) نستمع منه لحكاياته اليومية ، جاء دوري اليوم في طلب الحكايات فسألته ملهوفاً :

- ما هي زنجبار يا قبطان برغش ؟

كالعادة نظر لبعيد ، ثم بلهجة مملؤة بالفخر والحماسة قال :

- أفسحي لنا الطريق يا أفريقيا .. لقد دخل الاسلام قلوب العرب وعقولهم .. فأحياهم بعدما كانوا أمواتاً .. هاهم قادمون اليك على متن عشرات السفن ، وطوال مئات السنين ..

أترى هذه السفينة الكبيرة يا تميمي ؟ نعم ، تبدو عتيقة جداً ، انها منذ عهد الأمويين ، لكنها ذاهبة الى مجهول بالنسبة للعرب ، ذاهبة الى أرض السومال لكي يرفع العرب راياتهم عليها ويجعلونها جزءاً من جزيرتهم ..

أترى هذه السفن العديدة ، نعم طرازها غير عربي ، انها فارسية ، شيرازية بالتحديد ، على كل منها يقف أحد الاخوة ، مجموعة من الاخوة الشيرازيين قرروا الخروج من بلادهم بقومهم لعشرات الأسباب ، والمجئ الى هذا الساحل الأفريقي ، هذه الجزر الخضراء والسواحل البكر المزدحمة بالخير ، هل ندخل مدغشقر ؟

نعم فلندخلها ، فلترتفع راية الاسلام هنا على يد الشيرازيين ، ولنتزوج من الأفارقة ونمتزج بهم لنزداد اختلاطاً ..

ماذا عن تلك المجموعة من السفن التجارية ؟

نعم ، انها تغزو قلوب وعقول أهل (منباثة) ، لا يمر وقت طويل حتى ينتشر الاسلام في ربوع تنجانيقيا وجزر بيمبا ولامو وزنجبار والقمر .. الكل يقبل على الاسلام لسماحة أهله ، الرايات الاسلامية ترتفع في طول ساحل شرق افريقيا .. السفن تأتي تترى على هذه السواحل البكر ، المسلمون انشغلوا طويلاً بأوربا وتاريخهم المعروف لأغلبهم هو تاريخ صدامهم معها ، لكنهم لا يعرفون شيئاً عن تاريخ مجدهم في افريقيا ، حيث لم تكن أوربا

تعرف لذلك الساحل أي منفذ ، من مدغشقر بالأسفل وحتى اريترية في الأعلى ، كل هذه السواحل والجزر ، كل هذه البلدان الضخمة ، كلها رفعت رايات الاسلام خفاقة منذ القرون الأولى لظهور الاسلام .

يسمون العرب هذا الساحل الضخم بكل جزره زنجبار وأصلها (بر الزنج) .. لقد اعتبروا أن كل هذا الساحل الضخم المواجه لهم مجرد (البر الآخر) للمسلمين .. أمام بر العرب في عمان واليمن كان هناك بر العرب المسلمين ، سموه زنجياً للتمييز فقط .. بر الأفارقة ، امتزج العرب والشيرازيون بالقبائل الافريقية فخرجت أجيال خليط تعيش كلها تحت راية الاسلام لقرون وقرون .. ولتفخروا يا شباب عمان فغالب هذه الدول كانت تتبعنا طوال القرون الماضية وحكامها وكثير من سكانها من أسر وقبائل عمانية ..

ثم رفع يديه في الهواء وهو يكمل متحمساً :

- ثم هذه الجزيرة يا شباب .. هذه الجزيرة الرائعة التي تشبه الجنة ، مياه زرقاء رائقة شفافة ترى فيها الاسماك والخيرات في الأعماق كأنها أمامك ، ومزدحمة بالأشجار الخضراء بكل درجات اللون الأخضر ، فيها ورود حمراء وصفراء و زرقاء ، وحيوانات لطيفة كأنها جاءت لتعطي الصورة كامل البهاء والتمام ، يمر وسطها نهر صغير يوفر للقاطن فيها الماء العذب الحلو طوال الوقت ، وجوها هو ما يتمناه المرء من هواء بكر لا يتلوث أبداً بغير الروائح العطرية للزهور ..

هذه الجزيرة سموها (زنجبار) بشكل خاص .. لقد أصاب العرب المسلمون الذهول من جمالها ، فأطلقوا عليها الاسم الذي أطلقوه على كل ساحل شرق افريقيا ، لقد شعروا أن هذه الجنة الصغرى تمثل كل شرق أفريقيا .. الأرض البكر رائعة الجمال التي غفل عنها الجميع وانتظرت المسلمين فقط لتعطيهم خيرها ويستوطنوها بكل يسر و ترحاب ..

فجأة توقف (القبطان) عن السرد وظهر على وجهه الامتعاض الشديد قبل أن يكمل وفي صوته نبرة غضب :

- لكن الظلام يأتي رافعاً راية الصليب والمدفع ، يأتي رافعاً راية البرتغال ، قوم سفاحون مجرمون أدركو عجز أوروبا عن اختراق الطريق الى مكة من أعلى بسبب حائط الصد العنيف المكون من مصر والشام ، فقرروا البحث عن طريق آخر مفاجئ من اسفل جزيرة العرب ، هكذا داروا حول افريقيا وفوجئوا بهذا العالم المزدحم المهيب ، هذا الكنز الخفي المكون من دول يفيض الخير من كافة جنباتها ، صدمهم أنها كلها ترفع راية الاسلام ، أصاب البرتغاليين الذهول ، لكنهم تحكموا في أنفسهم حتى عرفوا نهاية هذا الطريق الجديد على أوروبا ، وكانت نهايته في الهند ، دلهم على الطريق - وياللأسف - بعض المسلمين الذين أحسنوا الظن واعتقدوا أنه من الضروري رعاية الضيف حتى ولو كان ذئباً !

هكذا بعد سنوات قليلة وقع في نير عبوديتهم ساحل أفريقيا كله بل وسواحل جنوب الجزيرة العربية بل وعمان بلادنا نفسها ، الكل وقع في قبضة هؤلاء السفاحين ، من مدغشقر حتى الهند ! محيط الهند الذي كان بحيرة عربية اسلامية خالصة أصبح كله تابع يتلقى الصفعات من سيده البرتغالي الذي تميز طوال حكمه بالمذابح الحاقدة المجنونة ..

كانوا في افريقيا بالذات يتعمدون مواجهة أي ثورة اسلامية بحرق المدن واغتصاب النساء وابادة كل من ساند أو حتى فكر في مساندة من تمرد عليهم .. هكذا كرههم الافارقة جميعاً وانتظروا أي فرصة يشعرون فيها بضعف البرتغاليين فيقومون بثورة دموية على حامياتهم المنتشرة ويقتلون كل من فيها بكل قسوة رداً على همجيتهم السابقة .. لكن البرتغالي اللعين لا ينسى ، يأتي في الغد بسفن تملأ البحار ويقوم بما كان يهواه من ابادة تامة وحرق للمدينة وأهلها ، منباثة بشكل خاص ثارت كثيراً وقام البرتغاليون بإبادة أهلها عدة مرات ، لكن بعد فترة قصيرة تمتلئ المدينة بأهل آخرين من المسلمين ، ويقومون بانتظار الفرصة للثورة ، وهكذا ..

أخيراً وجدت وجه العجوز ينتشي وهو يقول مبتسماً :

- ومن عمان بدأ المجد للعودة ، قمنا بثورة على البرتغاليين فأبدناهم ومزقناهم شر ممزق ، قاسينا معهم كثيراً وجرحت أنا نفسي عدة مرات في معاركنا المجنونة معهم والتي خاضوها بروح يائسة من عودة التفوق الاسلامي ، لقد حسبوه قد ضاع للأبد وأن ذهابهم الى مكة لهدم الكعبة هو مسألة وقت يمكن تأجيلها ماداموا يسيطرون على جنوبها ، لكن الله أعماهم لسنوات طويلة حتى أنهينا وجودهم من عمان كلها ..
هنا يثور بر الزنج كله في سعادة مجنونة .. البرتغال هزم من عمان يا رجال ! هكذا يجيئون إلينا في مسقط يطلبون مساندتنا نحن أول من سحق البرتغاليين ، يذكروننا برابط الاخوة في الدين والأصل ، وهكذا يذهب سلطان عمان منذ سنوات إليهم في اسطول كبير ، ما ان يصل الى قرب السواحل حتى تشتعل ثورة تبيد كل البرتغاليين وتنهي وجودهم بسرعة البرق ، سيشتبك سلاطيننا العمانيين معهم لسنوات طويلة سيحاول البرتغاليون خلالها العودة ، لكنهم سيلقون جحيماً ينتظرهم كل مرة .. لقد قامت الثورة الاسلامية ولن تسمح لهؤلاء السفاحين الأوغاد بالعودة .. وهكذا تنتهي البرتغال من هنا على يد أهل عمان فلكم أن تفخروا يا شباب ، أخيراً قمنا باصلاح خطأنا القديم وحررنا كافة بر الزنج ..

توقف (القبطان) عن السرد ثم نظر لي وهو يقول مبتسماً :
- هل عرفت ما هو بر الزنج ؟ هل عرفت ما هي زنجبار ؟
أومأت برأسي في صمت .. و كانت بداخلي مشاعر كبيرة تعتمل و أفكار كبيرة تتصارع ..

١٠

بمجرد أن رست السفينة في ميناء زنجبار المزدحم بالسفن التجارية ، حتى اصطحبني (القبطان برغش) نفسه عبر الطرقات المحاطة بالأشجار خارج الميناء ..
كنت أدور بعيني في كل مكان منبهراً بتلك الجنة الأرضية ، يفوح من هواءها روائح الفاكهة المختلفة والورود ، بينما تطير العصافير مغردة بين الأشجار الضخمة والنخل المزدحم

بالثمر الأحمر ، كل هذا والبحر في الخلفية يصنع بصوت أمواجه مزيجاً جعلني أشعر برغبة في البكاء من فرط روعة الخالق !

دخلنا في طرقات المدينة نفسها بعد قليل ، وابتعدنا عن البحر ، ذكرني (برغش) بأن الجزيرة ضخمة ، وليست صغيرة على الاطلاق .. وهي من أكبر الجزر الموجودة في شاطئ شرق افريقيا ، كان يدلي المعلومات وأنا أتابع المسيرات الرائحة والغادية من أهل زنجبار المسلمين ..

مزيج عجيب من العرب العمانيين بخنجرهم المميز الذي يزينون به حزامهم البسيط وعبائتهم الشهيرة البسيطة .. شعرت هنا بأني في أرض عربية ربما أكثر من مسقط نفسها ! لكنهم كانوا لا يتحدثون عربية بشكل كامل ، لاحظت هذا عندما استمعت لبعضهم يتحدث مع التجار ، توقفت مندهشاً أحاول فهم هذه اللغة الجديدة العجيبة ، لاحظني (برغش) فاقترب مني يشدني من ذراعي ليحثني على السير بجواره وهو يقول :

- أهل (زنجبار) من أرق الناس على وجه الأرض .. لكنهم لا يحبون الشخص الفضولي !

نظرت الى من كنت استمع اليهم فوجدتهم بالفعل ينظرون لي في ضيق !

- لم أكن أعرف .. لكني بالفعل لم أفهم شيئاً من حديثهم !

- هي السواحيلية .. لغة أهل زنجبار وشرق افريقيا .. مزيج من اللهجات الافريقية والعربية وبعض البرتغالية ! هي اللغة الرسمية هنا وعليك أن تتعلمها ان نويت البقاء ..

البقاء ؟!

الحقيقة أنني كنت في حالة غضب شديدة من (ثويني) أن بعثني الى زنجبار المجهولة هذه .. لكني منذ لمست أرضها حتى الآن وأنا أشعر بأنه من المستحيل أن أرضى بمفارقة هذه الأرض مرة أخرى !

كيف لمن رأى وسمع وشم هذا الجمال المتجسد أن يرحل الى أي مكان آخر ؟

ما هو المكان الأجمل من (زنجبار) سوى الجنة ؟!

نعم سأتعلم هذه اللغة السواحيلية .. ونعم قررت أن أعيش هنا الى حين أموت !

وصلنا الى حيث منزل عربي فخم في نهاية طريق على جانبيه ورود وأشجار كالمعتاد .. كان هناك خادم أسود ما ان رأى (القبطان برغش) حتى نهض يستقبله مهللاً بسعادة وحبور بهذه اللغة العجيبة التي فوجئت باجادة الأخير لها ..

دخل الخادم الى المنزل لفترة قصيرة ، خرج بعدها رجل فخم الهيئة ضخم الجثة بشوش الوجه ذو لحية بيضاء كثيفة ، ما ان رأى (برغش) حتى ضحك مستقبلاً اياه بكلمات الترحيب العربية هذه المرة ، ظللت واقفاً في صمت أتابع هذه المشاعر الصادقة ، عرفت من حديث برغش أن اسمه السيد (تيمور) ، فالتفت الى الرجل يرحب بي وفي عينيه نظرة متسائلة .. لكن هذا لم يمنعه أن يدخلنا منزله ..

جلست طويلاً في غرفة أنيقة جداً ، كانت مفروشة بالسجاد الفارسي ومعلق على حوائطها سيوف عربية وخناجر عمانية ، بينما صفت اباريق زجاجية وخزف مزخرف من ألوان عجيبة بين الأحمر والأزرق والأخضر على رفوف معلقة في الحائط ، غرفة واسعة فيها دكك واسعة وكراسي منقوشة ومطعمة بحبات اللؤلؤ .. ويفوح بداخلها رائحة مدوخة لبخور لم أشمه من قبل !

ما هذه الجزيرة العجيبة ؟

ما هذا الجمال الذي ينطق به كل ركن من أركانها ؟

كان (برغش) يحمل رسالة من (ثويني) الى السيد (تيمور) ، فضها وراح يقرأها بهدوء وصمت ..

ما ان انتهى منها حتى نظر الي يسألني مبتسماً :

- أتعرف أني صهر السيد (ثويني البريكي) ؟

- نعم يا سيدي .. أخبرني السيد (ثويني) أنه سيبعثني اليك ..

- يقول في الرسالة أن أسمح لك بالعيش هنا في منزله الخاص والمجاور لمنزلي هذا .. يقول انك قد أنقذت حياته لهذا هو مدين لك بالكثير ويطلب مني رعايتك كابن لي وله ..

أنقذت حياته ؟ منزله الخاص ؟

عم يتحدث الرجل ؟
لماذا كذب (ثويني) ؟
توقفت للحظات عاجزاً عن الاجابة ومواصلة الحديث مع السيد (تيمور) ..
هل فعل (ثويني) هذا كحجة لتفسير سبب عنايته هذه بي أمام السيد (تيمور) ؟
هل فعلها بسبب خوفه أن يعاملني السيد (تيمور) بصورة سيئة أو يشك في ؟
لا أجد تفسيراً مناسباً في الوقت الحالي ..
- أنت (تميمي) اذن يا راكان ؟
هززت رأسي بالايجاب فتابع :
- غريب أن أجد علاقة تربط بين (تميمي) من نجد و (بريكي) من عمان ! لكن على أي حال وصية السيد (ثويني) هي أمانة حتى يجئ الى هنا في زيارته السنوية ويعطيني التفسير الكامل .. سأعاملك كإبني تماماً كما طلب وسأعطيك منزله وبعض العبيد من عندي كي يقوموا على خدمتك ..
شكرته بشدة وقام يدلني على الطريق الى غرفة للضيوف طلب مني أن أستريح فيها اليوم حتى ينتهي من اعداد المنزل الآخر ، ودعت القبطان برغش وشكرته فهز رأسه قائلاً وهو يبتسم :
- سأجئ الى هنا كثيراً يا تميمي .. ولدي شعور أكيد أنك ستزودني بعشرات الحكايات الجديدة لباقي البحارة .. في عينيك ثورة وغموض ..

****

في غرفتي الفخمة التي توسطها فراش مذهب ضخم رقدت على ظهري أفكر في مستقبلي هنا ..
إن (ثويني) يقطع أشواطاً غريبة معي .. يعاملني كإبن فعلاً بينما أنا لم أكف عن توريطه وهو يحميني كل مرة بل ويفعل ما يشبه المكافأة أحياناً !

وهل هناك مكافأة أجمل من زنجبار ؟
لكن التفكير أثار في نفسي ضيق آخر .. أين أحلامك للأمة يا (راكان) ؟ هل ستعيش لنفسك فقط ؟ نعم زنجبار هي أجمل ما رأيت لكن هل تستكين لهذا الجمال وتطلق الى الأبد حياة المغامرات التي طلبتها دفاعاً عن دينك ؟
أصابني هم وغم ، تحركت نحو النافذة الخاصة بالغرفة ، وقفت أتطلع منها الى البحر المطل من خلف صف واحد فقط من الأشجار ..
هنا رأيت تلك الفتاة الصغيرة ..
سنها مماثل لسني تقريباً ، بيضاء ترتدي ملابس غريبة قليلاً رأيت مثلها في أسواق زنجبار ، كانت تضحك مع جارية سوداء بجوارها وهي تحاول التطلع الى ..
الى نافذتي !!
تراجعت الى الداخل مبهوتاً ..
لقد كانت تحاول التطلع الى نافذتي !
على الأغلب رأتني طبعاً ..
تحركت نحو السرير وبداخلي ثورة هائلة ! يالها من فتاة جميلة ! لقد أثارت فيك كل ما كنت تحاول إسكاته منذ بلوغك يا (راكان) ! لكنها جميلة ! لكنك كلب خائن ! خنت رب منزلك وتطلعت اليها ! خنت دينك ونظرت الى أجنبية ! لكنها كانت نظرة واحدة سريعة غير مقصودة ! الله يغفر للنظرة الأولى ! لكن لماذا تشعر بهذا الاهتزاز في جوانحك ؟ قلبك يدق بجنون وكل غرائزك تصرخ بأنها جميلة .. نعم جميلة جميلة !
نهضت في غضب من نفسي الى حيث طست فيه ماء .. رحت أتوضأ في غيظ ، ان كان ما بداخلي من أفكار هو من فعل الشيطان فسأسكته الآن وحالاً !بعد ثوان بدأت في اقامة الصلاة .. فلتهدأي يا نفسي الثائرة !
أتمنى أن تفعل ! لكن الفتاة – تظل بعد كل هذا – أجمل ما في الجزيرة !

١١

حياة هادئة لطيفة ..

هذا هو ملخص ما كنت أعيشه هذه الأيام ..

منزل السيد (ثويني) المجاور لمنزل السيد (تيمور) هو البساطة ذاتها .. صغير أنيق .. فيه خادمين أسودين مسلمين .. الأول (موتابو) قوي جداً ولا يتحدث كثيراً ، وإن تحدث كان كلامه بالسواحيلية غير مفهوم ، وهو مختص بإحضار العبيد لزراعة الأرض والحراسة ، والآخر (أمين) يتحدث العربية بطلاقة وبلهجة عمانية ، مرح جداً في منتصف العشرينات وهو يقوم على شئون الجواري في المنزل ومختص بالتعامل مع التجار في الخارج ..

قارئ جيد كذلك والسيد (تيمور) يحبه جداً ويوليه رعاية كأنه ابن له وواحد من الأسرة ..

لهذا كان من السهل انشاء صداقة وطيدة بيننا في خلال الأسابيع الأولى لقدومي ..

الأيام شبيهة ببعضها البعض ، في الصباح أخرج مع (أمين) للسوق لنبتاع ما نريد ، صمم على أن يعرفني ببعض التجار العمانيين والهنود الذين يتعامل معهم ، وبعضهم رحب بي بشدة والباقي لم يفهم صفتي جيداً فعاملني بتحفظ ..

قبل الظهيرة نعود الى المنزل فنتناول بعض ثمار الفواكه ، أحياناً يجيئنا السيد (تيمور) ليجلس معنا ويحكي عشرات من مغامراته في زنجبار و منباثة الموجودة على بعد بضعة أميال بحرية منها ولها تاريخ مشترك طويل مع زنجبار ..

الرجل ثرثار بحق لكنه لا يُملّ أبداً .. عنده فخر شديد بأصول قبيلته و عائلته ذات الأصول العربية العمانية .. وهو أمر له شأنه هنا في زنجبار وشرق أفريقيا عموماً .. فالعرب في أعلى مرتبة اجتماعية وثقافية يليهم الشيرازيين ثم الهنود فالزنوج ..

لكن بشكل عام هناك تعايش سلمي كامل بين الجميع تحت مظلة الاسلام .. هذه ميزة نبهني لها السيد (تيمور) ولم أفكر فيها قبل كلامه .. هناك تزاوج كذلك بين جميع الأعراق

، والشيرازيون بشكل خاص أفارقة تماماً لا علاقة لهم بملامح الفرس الا قليل .. هم فقط سموا أنفسهم كذلك كمحاولة للافتخار بأصولهم في مجتمع عرقي كهذا !

بعد ثرثرة الظهيرة مع السيد (تيمور) ، هناك دائماً جولة برفقة (أمين) في الأرض الزراعية المواجهة لمنزلي والتي تنتهي بدغل صغير من أشجار الفواكه يليها البحر .. تعودت أن أظل متأملاً هناك حتى المغرب ثم العودة للمنزل والقراءة حتى النوم ..

هكذا تمضي الأيام في تلك الجزيرة الهادئة .. بلا أي هموم .. بلا أي مشاكل ..

نسيت كل شئ عن كل شئ .. شعرت بدهشة شديدة من ازدحام الجزيرة العربية بالصراعات والمشاكل والحروب والتحالفات والقتال المستمر ، كل هذا من أجل مد نفوذ على صحراء جرداء .. تاركين هذه الجنان الجميلة لغيرهم ! لماذا لا يهاجرون ؟ لأن أكون مواطناً بسيطاً هنا أروع ألف مرة من ملك على صحراء جرداء ! لكنها شهوة السلطة .. تلك الشهوة المجنونة الغريبة لأن تأمر فتُطاع بلا نقاش ولا رد !

لو عرف الحكام المسلمون الواجبات والأعباء المفروضة عليهم حقاً ، وشعروا بمراقبة الأمة لهم ، ما فكروا لحظة في السلطة ، ولربما هرعوا جميعاً ليعيشوا في هذه البلاد الجميلة ولو حتى كعبيد !

كان كل شئ يسير على ما يرام ..

حتى أتى ذلك اليوم ..

***

تعودت في الأيام الأخيرة أن أجلس على الشاطئ وحدي دون (أمين) .. هو مشغول بأسرته وقد فهمت أنه فرغ نفسه تماماً عندما قدمت كي يوطد علاقته بي .. لكن وراءه أعمال أخرى مساءً وكذلك وراءه منزل يعوله ..

في هذا اليوم تأخرت أمام البحر الى ما بعد آذان المغرب ، هنا رأيتها !

كانت نفس الفتاة التي لمحتها للمرة الأولى ، وقد كانت تسير وحدها على الجزء المواجه لمنزل والدها السيد (تيمور) من الشاطئ ..

خفق قلبي بشدة ، نهضت كالملسوع وتحركت سريعاً الى تبة صخرية قريبة ، اختبأت وراءها ، فقدت تعقلي وفقدت كل شئ !

راحت تسير على الشاطئ لدقائق ، ثم تحركت راجعة نحو منزلها ..

قبل أن تدخل مرة أخرى بين الأشجار .. نظرت نحو الصخرة التي أختبأ وراءها ..

ضحكت واختفت سريعاً !

***

ليلة سوداء قضيتها في منزلي !

النظرة الأخيرة ! الضحكة الأخيرة !

لقد كانت تعرف بوجودي .. لقد أرسلت رسالة رهيبة !

لكن ويحك يا (راكان) يا لعين .. (لا تجسسوا) ! خنت دينك ! خنت الرجل الذي يعاملك كابنه منذ قدمت الى هنا !

تتجسس على النساء يا راكان ؟!

لكنها جميلة .. هل ما أفسد علي كل الصفاء الذي كنت أعيش فيه هو ما يسمونه الحب ؟!

قرأت عنه كثيراً في الأشعار .. لكنها المرة الأولى التي أجد فيها هذا الألم ..

والسعادة !

رسالتها واضحة .. تقدّم ..

فكرت كثيراً في أن اتربص لها غداً في نفس الميعاد .. سأخطوا نحوها لأحدثها وليكن ما يكون !

لكن ..

لا ..

هل يباركك ربك وقد رفض هذا الطريق ؟

لماذا لا تتبع الطريق الصحيح ؟

لماذا لا تتقدم لخطبتها ؟

لماذا تصعب الطريق على نفسك باتباع غير الشرع ؟
الاسلام بسط لك الأمور حين قال الرسول انه لم ير للمتحابين غير النكاح .. تحبها وتحبك ؟ تزوجا يا رجل .. تزوجا يا راكان بلا مشاكل .. لا تعقد الأمور وتخاطر في طريق لا يرضاه الله ..
غداً سأفاتح والدها .. وبعد أيام تصبح زوجتك ..
هكذا الزواج في الاسلام بكل ببساطة ..

***

تغير وجه السيد (تيمور) فور مفاتحتي له بطلب زواجي من ابنته !
اعتدل على الدكة المواجهة لي وظل صامتاً دون رد ..
شعرت بالقلق يعتصر قلبي .. أنا شاب متدين جداً ولله الحمد أحفظ القرآن و قارئ نبيه .. فما باله تغير هكذا ؟
في تردد قال لي السيد (تيمور) :
- الحقيقة أن مثل هذه الزيجة مستحيل أن تتم يا (راكان) !
ماذا ؟
- لماذا ؟
- يا بني أنت شاب عربي من الجزيرة .. وتعرف التقاليد جيداً .. مستحيل أن أزوج ابنتي لرجل من غير قبيلتنا !
- أي قبيلة يا سيدي ؟ ألم ينه الرسول عن هذا بقوله (دعوها فانها منتنة) ؟
- لم يكن يقصد القبلية .. كان يقصد الفتنة ..
- القبلية هي الفتنة يا سيدي .. المسلم لا انتماء له سوى الاسلام .. أعضاء قبيلته هم المسلمين ..
- هذا كلام فارغ .. نظام القبلية وجد قبل الاسلام وظل في الجزيرة طوال هذه القرون .. من أنت يا فتى حتى تعتبره نظام خاطئ ؟

- بل هو نظام خاطئ بغيض أيضاً .. والدليل أن في عهد الخلفاء الراشدين اختفى معنى القبلية أو كاد ..

- أنت تقول كلاماً لا مجال للحديث عنه يا راكان .. القبيلة موجودة وستظل .. أعرافها موجودة وستظل .. لا مجال لما تفعله الآن ..

- وهل أقبل أعراف القبيلة عندما تناقض الاسلام ؟

- أي مناقضة ؟ نحن من قبائل مسلمة أباً عن جد ونعرف تعاليمه جيداً يا فتى .

- ألم يقل رسولنا (الناس سواسية كاسنان المشط) ؟ ألم يقل (لا فارق بين عربي وأعجمي الا بالتقوى) ؟ ألم يجعل مؤذنه حبشي أسود ؟ ألم يطلب منا كمسلمين الوحدة كالجسد الواحد دون تفرقة ؟

- لا أرى مخالفة لهذه الأحاديث بأعراف القبائل !

شعرت بيأس قاتل .. يأس رهيب .. تخايلت لي الفتاة وهي تضحك .. هل كانت تسخر مني ؟

- سيد (تيمور) .. أترضى ديني ؟ أترضى أخلاقي ؟

- والله يا بني أنت من خير الشباب ديناً وخلقاً .. لكن الأمر ليس بهذه البساطة ؟

- لماذا ؟ لماذا هو صعب ؟ أليس الرسول هو القائل (اذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه) ؟

- نعم .. لكن الكفاءة في النسب مطلوبة ..

- من قال هذا ؟ أنا لدي كلام ربي وكلام رسولي وليس فيه أبداً (الكفاءة في النسب شرط) ! من قال هذا ؟

- هناك فقهاء قالوا بهذا .. هذا ليس مجرد عرف يا بني !

- أنا أقول قال الله وقال الرسول وتأتيني بكلام بشري غيرهم ؟ أي فقيه ذلك الذي يجعل حواجز بين البشر وقد هدمها الله بين كافة المسلمين ؟

نهض السيد (تيمور) وهو ينفخ في ضيق شديد ، ثم قال بلهجة حاسمة قاطعة :

- يا بني .. لا تعد لهذا الموضوع مرة أخرى .. أما والله لولا أن السيد (ثويني) قد فعل معي ما لا يمكن أن أخيب له طلباً لكنت قد أخرجتك من هذا المنزل المجاور لي .. لكن أتمنى أن لا تقترب من منزلي مرة أخرى .. أتمنى ألا تخون الأمانة وأنت الأمين ..

- يا سيدي ما جئتك الا لأني أرفض خيانة الأمانة !

- حسناً .. عامة اقترب موعد قدوم السيد (ثويني) الذي يقوم به كل عامين .. سنبحث لك عن عروس كفء لك وقتها !

يأس هائل ، قلب منكسر ، قلت مهزوماً بغير وعي :

- لكني من (تميم) ! ان بحثت عن النسب فأنا من (تميم) !

- انتهى الأمر يا بني .. وفقك الله لمن هي خير .. أستودعك الله ..

١٢

(لكنني من تميم .. أنا من تميم !)

هكذا ظللت أردد لنفسي طيلة اليوم مستهجناً !

يالحقارتي ! لماذا تضاءلت أمامه هكذا وأنا مالك الحق ؟ لماذا خنت مبدأي عندما شعرت باليأس ؟

ترفض القبلية والافتخار بالأصل ثم تلجأ له عند هزيمتك ؟

يا الله !

كم أنا ضعيف ؟ وكم هو أمر خطير أن توضع مبادئك تحت اختبار مصيري ! انها قد تذوب في ثانية واحدة بلا رجعة !

هل أبرر لنفسي ما حدث ؟

لا .. لن أفعل ..

لو قمت بتبرير ما حدث لنفسي ما استفدت شيئاً .. الحق لا يُعرف الا بمواجهة النفس بكل صدق وصراحة ..
أنا ضعيف وقت الاختبار ! اذن فلأدعوا الله أن لا يضعني في موقف كهذا مرة أخرى .. وان سقطت فيه رغماً عني فلأدعوا الله أن يثبتني .. كم أنا ضعيف !
لكن الفتاة ؟
انك تحبها يا (راكان) .. وهي أرسلت لك رسالة ضاحكة دون كلام ..
فما العمل ؟
حقاً ما العمل ؟
هل كنت تصدق هذا ؟
لقد كنت تعتبر أن الابتعاد عن تعاليم الاسلام هي التي جعلت المسلمين على هذا الحال .. و كان يتبادر لذهنك دائماً عندما تجيئك هذه الخواطر أن الابتعاد متعلق بالحكومات والحكام ..
لكن ماذا عن العوام ؟
ها أنت تفاجأ بعقبة هائلة أمام أول فتاة تحبها في حياتك .. وهي قادمة من ابتعاد العوام أنفسهم عن الاسلام .. لا لوم على الحكام في هذا .. بل اللوم الأكبر على أهل العلم الذين سكتوا عن هذه التفرقات العرقية .. بل رضوا بها ونظّر بعضهم لها !
هكذا ظللت في هذه الخواطر طوال اليوم والمساء التالي .. مكثت في غرفتي لا أفارقها .. شعور غريب بالألم واليأس بداخلي .. برغم تأملاتي في أزمة الأمة الدينية نفسها وفي الحكمة المستنتجة من ذلك .. الا أن الحقيقية الرئيسية هي أنني كنت أقوم متعمداً باغراق نفسي في هذه الأفكار ..
كي أنسى وجهها .. كي أُسكت هذا الألم الحارق بداخلي ..
لكن للأسف ..
التأمل والتفكير لم يطفئ الحريق !

يا للعنة الحب .. ويالحرقة المُحب اليائس ..
(لم ير للمتاحبين غير النكاح) ..لا .. لم يجعل هناك أي شرط أو تفرقة بين المحبين .. وجعلها أتباعه !
صدقت يا رسول الله .. وكذب وضل كل من خالفك !

***

ظللت في غرفتي حتى ظهيرة اليوم التالي .. تأخر (أمين) اليوم ..
بعدما صليت وجدته يستأذن الدخول .. استقبلته فوجدته يشعر بالدهشة والذعر لأول مرة .. سألني فوراً عما فعلته بالأمس فأخبرته .. أبلغني أن السيد (تيمور) ثار عليه بصورة بالغة وأن منزله مشتعل منذ الأمس .. كان هناك استجواب كبير وعنيف تم للفتاة وأمها والخدم و(أمين) انتهى بأن أعلن السيد (تيمور) احتجابها في المنزل حتى زواجها !
شعرت بالدهشة والألم .. تألمت للفتاة وتألمت أن يكون هذا هو جزاء اتباعي لشرع الله دون أي مداراة والتفاف .. ما هذه الجاهلية ؟ أي اسلام في قلوب هؤلاء الناس ؟ كيف يوقر أي مسلم عرف أو شرع يخالف شريعة ربه وتعاليم دينه ؟ كيف يقدسه ويجعله فوق شريعة ربه الا اذا كنا نعيش في جاهلية من نوع جديد .. جاهلية ترتدي ثوب الإسلام !
كان (أمين) متعجباً من جهلي بهذه التقاليد العربية القادمة من حيث أتيت .. لم أستطع التحمل أكثر من هذا .. انفجرت فيه بثورة وأخرجت كل ما بداخلي من أفكار .. ظل يستمع لي في دهشة وصمت .. كان كأنه يستمع لهذه الآيات والأحاديث للمرة الأولى .. عشرات الأفكار التي كانت بداخلي وجدت طريقها للخارج للمرة الأولى ..
لم يعلق ..
فقط تغيرت نظرته وأطرق متأملاً بعد أن توقفت عن كلامي الثائر ..
نهض من مكانه وأمسك بيدي يدعوني للذهاب معه !
- الى أين يا (أمين) ؟
- ستعرف فيما بعد !

خرجت معه وأنا متعجب من نظرته الحازمة المنفعلة الغريبة التي أراها لأول مرة في عينيه .. ظل طوال الطريق صامتاً .. وصلنا الى سوق زنجبار الكبير .. تحركنا بنفس الانفعال والصمت حتى دخلنا الى طريق لم أدخله من قبل .. لفت نظري سابقاً بسبب ازدحامه ووضوح أهميته الشديدة لكن (أمين) كان دائماً يتحاشاه بإصرار لم أفهمه ..

في نهاية الطريق وجدت ساحة كبيرة .. كان هناك تجار هنود وعرب وأفارقه ينادون على بضائعهم .. طلب مني أمين أن أقف بجواره صامتاً لأعرف ما هي البضائع .. ظللت بجواره أتأمل وأحاول الفهم وسط النداءات العالية ..

هناك عشرات السود مربوطين بالسلاسل من أعناقهم .. السلاسل ممتدة من رجل الى آخر الى فتاة الى صبي !

مشهد مهين ! مهين للانسان ! مهين للاسلام !

ظهر الامتعاض على وجهي وقد بدأت الفهم من احاديث التجار والعامة ..

هذه هي (سوق العبيد) !

هذا يتفحص تلك الفتاة .. وهذا يتأكد من قوة عضلات هذا الصبي .. الشباب الأسود المقيد لا تبدو على وجوههم أي تعابير ! برود وهدوء !

قبضت على يد (أمين) في عنف ، سألته في ضيق أن نرحل ..

رحلنا دون حديث من جانبي وجانبه .. يا الله .. أهذا السوق المخيف هو مصدر العبيد المنتشرين في الأراضي ؟

هل مررت بمثل هذا الوضع المهين يا (أمين) ؟ ياللهول !

رفع (أمين) عينيه وفيهما ألم شديد .. أخبرني حكاية طويلة عن تجارة العبيد المنتشرة في زنجبار وأفريقيا كلها .. الأوربيون في غرب أفريقيا قاموا بعمل جبار لنقل العبيد وتجارتهم في أمريكا .. وفتحوا الطريق في أفريقيا الشرقية لتجارة العبيد بالاحتلال البرتغالي .. وهكذا اندمج العرب والهنود في هذه التجارة المربحة ..

البداية تكون في تاجر عربي أو هندي أو حتى افريقي يذهب الى داخل أفريقيا بصحبة عصابة خاصة به .. تحدث اغارات على القرى البدائية البعيدة تماماً عن العالم ، ثم يتم اقتناص هؤلاء ونقلهم الى المدن التجارية لبيعهم ..

الحقيقة أن حال أي عبد ومعاناته غالباً تنتهي مع بيعه في البلد الاسلامية .. فأغلب الحكام المسلمين ودينهم جعل القدرة على تحريره سهلة .. وكذلك فالمسلمين يقومون بالعناية بهم وغالباً يدخل العبد في دين الاسلام ويقوم كذلك بالعمل لفترات معينة -صباحية في الأغلب- ثم يتركه صاحبه ليعمل في أي مكان آخر مساء أو يذهب لأسرته كما يشاء ..

يذكر (أمين) أن بعض الأوربيين الذين قدموا الى هنا أكدوا أن وضع العبيد في البلاد الاسلامية أفضل من وضع العمال (الأحرار) في أوروبا !

لكن تلك التجربة المؤلمة .. كيف تنساها ؟

تجربة الانتزاع من البلد .. من الأهل .. تجربة أن تُساق كالحيوان الأعجم وسط الناس .. تجربة أن تُباع وتُشترى .. تجربة أن يكون لك سيد مهما تعامل معك بأخوية فهو لا ينسى أبداً أنه سيدك وأنت عبده ! يترك لك نساءه أحياناً ويرحل على أساس أنك لست رجلاً كباقي الرجال ! أنت شئ ! أنت عبد !

لا .. هذه التجربة الرهيبة لا تنسى .. مهما كان وضعك ومهما تحررت بعد هذا فستظل (عبد تحرر) حتى موتك !

فما بالك ان رغبت بمناسبة فتاة تحبها من السادة ؟

هناك عشرات القصص على هذا .. وهناك عشرات الوفيات الغامضة تلت نشوء مثل تلك العلاقة من الإعجاب المتبادل !

لا أحد يقبل أن يزوج ابنته ، سليلة الحسب والنسب ، الحرة الأبية .. بمجرد عبد أسود !

حتى لو أصبح العبد كبير فقهاء عصره .. حتى لو امتلك كنوز الدنيا .. حتى لو أصبح مجاهداً صواماً قواماً ..

سيظل عبداً لصاحبه !

فلماذا تحزن يا (راكان) ؟

ان ما شعرت به واحد على ألف مما نعيشه طوال حياتنا !

***

تحركت هذا المساء نحو الشاطئ وقد ازدادت همومي وأفكاري ..

هل هذا معقول ؟ هل يصح أن يكون الانسان عبداً لغير الله ؟ ما هي شرعية عبودية شخص تمت الاغارة عليه وأسره قسراً ؟ ما هي شرعية هذه العرقية المستمرة في ظل إسلام لا يؤيدها ؟

ألم يجعل الاسلام عشرات التشريعات التي تقوم بتحرير العبيد على المدى الطويل كي تختفي هذه العادة ؟ وما هي شرعية أن تنحصر العبودية في لون و جنس معين ؟!

أليس من الحق أن نقول أن الاسلام قد بذر بهذه التشريعات البذرة نحو سحق هذه الآفة الى الأبد بعد سنوات قليلة ؟

ضربت عبدك ظلماً ؟ اذن هو حر .. فعلت كذا ؟ عليك تحرير سبعين رقبة ! دائماً تحرير تحرير ولم يذكر الاسلام شيئاً عن صنع العبيد .. نعم الاسلام جاء للتحرير مهما طال زمنه .. لا لصنع العبودية لغير الله !

وهل اتخذ رسولنا وصحابته عبيداً حتى تفعل الأمة مثل هذه السنة السيئة ؟

ألم يكن (بلال) الأسود عبداً في الجاهلية حراً في الاسلام ؟ اذن فنحن مرة أخرى نعود للجاهلية ذات الخلفية الاسلامية !

جاهلية استعباد السود لا تحريرهم .. صنع الطبقات وترسيخها لا محقها ومسحها .. ترسيخ الفوارق بين البشر لا اذابتها في بحر دين المساواة !

كنت غارقاً تماماً في هذه الافكار .. أقف أمام البحر الثائر هذه الليلة كنفسي المهمومة ..

هنا سمعت صوتها لأول مرة !

التفت ورائي في دهشة وذعر .. وجدتها تقترب مني بنفس الذعر وهي تناديني بـ(يا عربي) ! لكنها جريئة ! ما تفعله مستحيل أن أتخيله في بنات الجزيرة العربية !

اقتربت مني وسألتني بصوت عذب وأنا أذوب في عينيها الشقية اللامعة بذعر الجرأة الغير محمودة :
- هل فاتحت أبي في الزواج مني ؟
ياله من صوت عذب ! وياله من جمال ! الصادق أخبرنا أنكن أول فتنة بني اسرائيل .. وأعتقد أنك ستكونين أول فتنتي !
- نعم .. ورفض طلبي ..
- لكني أريد الزواج بك !
ياللجرأة المجنونة ! هل بنات زنجبار كلهن هكذا !
لكنها كانت مذعورة تماماً ! إنها يائسة ! إنها تحبني ! غريب هذا الحب الذي نشأ وتمكن دون أن أعرف اسمها حتى الآن ! بل الجنون أنه من الواضح أنها لا تعرف اسمي أنا أيضاً !
- لكن والدك رفض !
هل هذ البريق في عينيها دموع أم تخيلات ؟ لا تفعليها أرجوك فقد لا أتحمل ! هذه المرة الأولى التي أكلم فيها فتاة في حياتي .. ولو بكيت سيسهل علي أن أقتل أحدهم قرباناً لك الآن !
قالت بنفس الانفعال وصوتها مختنق :
- يريد أن يزوجني لقريب لنا أكرهه بشدة .. و لن أفعل .. هل تهرب بنا الى جزيرة أخرى لنتزوج ؟
هنا توقفت صامتاً ، في نفسي هلع شديد من تلك الجرأة والأفكار المجنونة .. أهرب بك ؟ أتزوجك بمخالفة والدك ؟
أخون الرجل الذي فتح لي بيته ؟ أخون السيد (ثويني) الذي جعل منزله أمانة في عنقي ؟ لا .. مستحيل !
خيانة العهد لا حل لها يا فتاتي ! لقد وصف الرسول المنافق بأنه يخون الأمانة .. فكيف أفعلها ؟ أبعد صلاتي وصومي أصبح من أهل النفاق ؟!

هكذا فكرت حازماً دون تصريح .. رفعت عيني الى عينيها الدامعة اليائسة .. نسيت فيم كنت أفكر وذبت فيها تماماً !
يالجمالك وجمال عينيك !
فلتهدم الدنيا من أجلك يا فتنتي ! لكن ماذا عن آخرتي ؟

١٣

مر عام كامل !
لم يأت (ثويني) حتى الآن .. مشغول بالمعارك هناك في عمان .. السلطان سعيد يقاتل دائماً وهكذا لا وقت فراغ لقادته ..
أرسل لي خطاباً مع القبطان (برغش) يشد فيه من أزري .. يطلب مني خطاب مماثل أحدثه بصراحة عن أحوالي هنا ..
بعثت له أشكره .. هل أكذب ؟ الحقيقة أنه صاحب الفضل بعد الله في هذه العيشة الهانئة .. صحيح أنها لم تخل من منغصات كبيرة .. أحدها عكر حياتي .. لكن لابد أن أشكره على كل شئ ..
تزوجت الفتاة الجميلة بقريبها !
ماذا أفعل ؟ لقد تماسكت بصعوبة ورفضت طلبها .. لن أخون الأمانة أبداً .. ان استطعت الهرب من أهلها كيف أهرب من ربي ؟
بكت ليلتها وهي تركض هاربة مني فمزقت قلبي .. لكن ما الحل ؟
هذه الأيام يحتفلون بقدوم ابنها الأول .. سموه (حارب) .. السرور عم أسرتها كلها واحتفلوا كثيراً.. ويبدو أن السيد (تيمور) بدأ أخيراً في اعادة العلاقات معي كما كانت .. الرجل

اطمأن لاستقرار ابنته وانتقالها الى مجال أسرة مختلفة ، النساء تنسى القديم بالزواج .. هكذا كان يؤكد لي (أمين) !

و مرت الحياة .. هناك ألم هائل من تخلي عنها .. وهناك ألم هائل من حبي الذي لم ينقطع لها .. وهناك ألم هائل كارثي يمزقني دائماً من حقارتي وأنا أفكر في امرأة متزوجة !

انها الحقارة .. انها الدناءة .. كيف تواجه ربك في الصلاة ؟ كيف تعيش بدون التفكير فيها ؟ كيف تعيش بالتفكير فيها ؟ كيف تفكر في متزوجة ؟

هكذا الألم يزداد يوم وراء الآخر ..

لكنه ألم خفي تظهر آثاره فقط وقت تعبدي لربي ..

كنت أظن أن ما فعلته قديماً هو الحل الأمثل .. لكني بعد هذا الوجع أصبحت أتساءل مرة أخرى :

هل كان ما فعلته هو الحل حقاً ؟

ألم تتحول بتفكيرك في سيدة متزوجة الى خائن مرة أخرى !

ياللدناءة يا (راكان) ! هل كنت تقبل لزوجتك أن يفكر فيها أحدهم ليل نهار دون أن تهشم رأسه ؟!

لا تحاول النسيان يا راكان .. بل انس فوراً !

لا تفكر .. بل افعل بلا ابطاء !

***

من الناحية السياسية كنت بعيداً تماماً عن الأحداث .. هناك عائلة مشاغبة اسمها (المزاريع) تحكم منباثه و زنجبار وجزء كبير من شرق افريقيا .. وهي عائلة عمانيه تستقل أحياناً عن سلاطين مسقط وأحياناً أخرى تدين لهم بالولاء العائم بلا جذور !

لكنني بعيد عنهم تماماً .. بعيد عن أي موطن للمشاكل في زنجبار ..

غريبة جداً هذه الحياة الهادئة الرتيبة بعد عام مثير في قلاع وسفن عمان و جلفار !

لكن الحقيقة أن هذه الحياة راقتني .. بين القراءة ومتابعة الزراعة والفواكه ومحادثة أمين والسيد تيمور يمر الوقت اللطيف ..

وفي نهاية العام الثاني فوجئت بالسيد (ثويني) على باب المنزل !

***

كان واقفاً في سعادة بينما الخدم يقومون بإنزال أغراضه في لهفة وفرح .. هرعت نحوه فاحتضنني ملقباً اياي بـ(ابني ركان) !

الآن لابد أن أعترف أنه مثل أبي فعلاً .. هذه العاطفة الحارة من جهته لا تجئ الا من أب .. كما أنني أحببت ما فعله من أجلي بكل جوارحي ..

جاء يهرول الينا السيد (تيمور) مهللاً في سعادة .. احتضن السيد (ثويني) وذهب ليرحب بزوجته الجالسة في العربة ..

دخلنا المنزل بينما زوجة السيد (ثويني) ذهبت الى منزل أخيها السيد (تيمور) لتقابل النساء هناك .. قضينا عدة ساعات في الحكايات المتبادلة واستحوذ أغلب وقت الحديث فيها السيد (تيمور) بلا منازع !

ما ان غادرنا لمنزله قليلاً للجلوس مع أخته الضيفة حتى التفت السيد (ثويني) نحوي يتأملني في سعادة ..

- لقد كبرت في هذين العامين يا (راكان) .. ملامحك أصبحت أكثر نضوجاً لكنها لازالت تحمل نفس النبل القديم ..

نبيل نعم لكن هل نفعني هذا في زواج من أحببت ؟

- نعم يا سيدي .. كل هذا ما كان ليكتمل لولا كرمك الشديد السخي المحير ..

- بعد كل هذا مازلت تتحير ؟ الأمر ببساطة انك تشبهه للغاية يا (راكان) .. تشبه ابني الذي مات في مثل عمرك يوم لقيتك .. لم انجب غيره طوال عمري ولم أرض الزواج من غير رفيقتي وحبيبتي .. لهذا كان موته كارثة هزتني لم أعالجها سوى برؤيتك اليوم .. لقد حفظتك

من نفسك يا فتى في هذا المكان الجميل الهادئ .. الآن أشعر بأني غيرت مسار حياتك .. وبأني حفظت ابني من حياة المغامرات والقتال التي أودت به !
- لكن .. ما خطتك يا سيدي التي تريدها لمستقبلي ؟ وهل مفروض علي تنفيذها ؟
- أولاً .. توقف عن سيدي هذه ! حرام يا راكان بعد كل هذا لا تناديني بكلمة (أبي) !
شعرت بالحرج الشديد ، نظرت للأرض وقلتها بصعوبة للمرة الأولى في حياتي .. لماذا لا ؟ الرجل فعل كل هذا ثم أتردد في توصيفه بما هو أهل له ؟ نعم هو :
- أبي .. سأناديك بأبي ..
ظل يضحك في سرور كالأطفال ! كيف يقود هذا الطفل الكبير الجيوش ؟ أم أنه بداخل كل قائد عسكري و رجل عجوز طفل صغير ينتظر لحظة انفراج ومتنفس للخروج ؟؟
ما ان توقف حتى أخبرني أن لي مطلق الحرية الآن .. ان أردت الرحيل فسيعطيني ما يكفيني وان أردت البقاء فسيقوم بجعلي أدير أملاكه هنا ..
- لكنك ترحل كثيراً ..
- أنا قادم هذه المرة للبقاء الدائم يا بني .. لقد أنهيت أعمالي وممتلكاتي في عمان !
شعرت بنشوة غريبة تغمرني .. ها هي الحياة اللطيفة الجميلة هنا تزداد اشراقاً بقدوم هذا الرجل اللطيف الذي يصر على أن أناديه (أبي) !
هناك سحر ما في (زنجبار) هذه .. برغم الألم الذي أصابني الا أنني أعترف بأنني أعيش أجمل أيام حياتي في جزيرة الجنة هذه ..
ويوماً ما سأشفى من جرحي لا محالة .

***

مرت الأيام بترتيب جديد لليوم .. (أمين) أصبح يجالسني وقتاً أطول في المساء بينما أصبحت جلسة الظهيرة صاخبة بثرثرة السيد (تيمور) و مزاح السيد (ثويني) الذي لا يكف

عن الضحك ومفاجأتي بجوانب لطيفة في شخصيته مغايرة تماماً لشخصية القائد العسكري المهيب ..
عرض علي السيد (ثويني) أن يزوجني من أي فتاة في الجزيرة .. لكني رفضت بشدة !
لماذا فعلت هذا ؟
بل الأولى أن أسأل أنا لماذا أقبل أن أتزوج من بنت حسب ونسب كما وعدني السيد (ثويني) بعدما دمرني حسبي ونسبي في اليوم الحاسم ؟
هكذا بقيت بلا زواج برغم تعنيف السيد (ثويني) لي عدة مرات !
هكذا كنت أقابله دائماً برفض قاطع غامض .. ومع الأيام وجدته توقف تماماً عن الحديث في هذا الأمر ..
أما زوجته فلم أتعرف عليها ولم أرها الا في النادر .. لكن من الواضح أنها لم ولن تعتبرني ابنها على الاطلاق !
(أمين) الثرثار حدثني عنها ذات مرة وأخبرني أنه اذا كان السيد (ثويني) هو القائد العسكري بالخارج والرجل المرح الصاخب في منزله فهذا لأن زوجته هي القائد العسكري لمنزله !!!
هكذا أمرته بالتوقف عن الحديث عن أبي وزوجته وذكرته بعاقبة الغيبة والنميمة .. لكن هذا التلميح العبقري ظل لسنوات هو انطباعي الوحيد عن المرأة !
ومرت السنوات بنفس الهدوء والسعادة الهائلة .. المنقوصة !
جولة الصباح وتفقد الأعمال الزراعية والتجارية .. جلسة الظهيرة عماد اليوم المسلية المرحة والممتدة حتى ما بعد المغرب .. التجول مساءً مع (أمين) أمام البحر الهادئ .. ثم باقي المساء بين الكتب ..
هكذا تمر السنين بنعومة الحرير .. هكذا أكبر ويكبر معي السيد (ثويني) والسيد (تيمور) و (أمين) .. كل شئ بقى كما هو طوال تلك السنوات كأنها خارج الزمان ..
حتى جاء عام ١٨٢٨ ..

أتممت وقتها السادسة والعشرون .. أصبحت أدير أملاك السيد (ثويني) بل وأملاك السيد (تيمور) تماماً فهو بلا أولاد ذكور هو الآخر .. فقط ست بنات زوج خمس منهن !

أصبحت الآن سيد المكان والابن المشترك لهما .. يعتمدان علي في كل شئ يخص العمل وغير العمل ..

بدأت مع الوقت أكون شبكة علاقات واسعة مع باقي بيوت زنجبار .. وكلما زاد نشاطي وانتشاري وتحكمي زاد خمول السيدان (تيمور) و (ثويني) واعتمادهما التام علي أكثر وأكثر !

لكن لم يكن الأمر ليمر بهذا اليسر للأبد ..

لكل مرحلة وداعة بريئة في حياة أي منا نهاية ..

وكانت النهاية هذا العام بالذات ..

جاءت على شكل عشرات السفن رافعة الرايات الحمر المميزة ..

نعم ..

السيد (سعيد) سلطان عمان جاء الى زنجبار ..

لكنه هذه المرة جاء ليبقى هو الآخر!

١٤

في الطريق الى بيت حاكم زنجبار مع السيد (ثويني) والسيد (تيمور) .. الطرقات مزدحمة قليلاً لأن أعيان البلد كلهم ذاهبين للترحيب بالحاكم الجديد .. السلطان (سعيد) ..
هناك رهبة مقترنة بالسعادة عند الجميع .. هذا ليس مجرد حاكم بسيط أو صغير وانما هو (سلطان) كبير له امبراطورية ممتدة من مشارف الهند حتى منباثة بشرق افريقيا .. وهذه المرة قد قضى على عائلة المزاريع تماماً وأعلن زنجبار و منباثة جزءاً لا يتجزأ من امبراطوريته بصورة نهائية ..
الكل مشغول بالتعرف الى السلطان الكبير ..
ما عدا السيد (ثويني) !
قضى معي الليل يحكي لي عن سبب ضيقه من مجيء السلطان (سعيد) الى هنا وكيف أن تحالفه مع الانجليز أصبح لا يطاق .. حتى انهم أصبحوا يقومون بإهدائه بعض سفنهم الحربية الضخمة مثل السفينة ليفربول العملاقة المهولة وعدة قطع بحرية أخرى ..
- لماذا يعطونه تسليح ضخم يا أبي ؟ أو ليس ذلك خطراً عليهم فيما بعد ؟
- يزودوه بها طالما ظل وفياً مخلصاً لصداقتهم .. والسلطان (سعيد) بحق نموذج للسلطان الأسد في منطقته القط في حضرة الانجليز .. هذا النموذج هو المثالي والمفضل .. يريدون حاكماً ذو شخصية قوية في قومه لكنه خاضع خنوع أمامهم !
- لكن .. بعد كل هذه السنوات من القتال معه ؟!
- لم تكن أنت يا راكان أول ولا آخر من حدثني في مسألة الولاء لأهل الكفر المعاندين التي كان يقوم بها سعيد ويجرنا اليها .. هناك الكثير قبلك وبعدك .. لكني كنت أتحجج بمصلحة أهلي .. حتى جاءت لحظة ما قررت فيها الرحيل و المجيء الى هنا تاركاً عمان للأبد ..
- لكن كيف سنتعامل معه هنا ؟ ما هي مخاطر قدومه ؟

- رغماً عنا يا بني سنصبح من المقربين له .. سنذهب لمجالسه طبعاً التي يحب عقدها مع أعيان البلد والتي أظنه سيحرص عليها هنا بالذات في زنجبار .. على الأقل حتى عودته الى مسقط .. لكن مثل هذا الكلام الذي أخبرتك به سيظل سراً بيننا .. سعيد لا يقبل بالتمرد وخاصة عندما تكون أقدامه مرتعشة في بلد جديدة عليه ..

هكذا أمضى اليوم معهم بعد محادثة الأمس الخطيرة ..

أخيراً وصلنا وسط الزحام لنجد عشرات من الجنود البلوش والعمانيين على الجانبيين .. ياللذكريات !

في قاعة الحكم كان يجلس مبتسماً يتلقى التهاني والترحيبات من كافة الأعيان والتجار .. وقفنا ننتظر دورنا حتى وصلنا أمامه .. وما ان رأى السيد (ثويني) حتى وقف من مقعده يحتضنه فرحاً ورحب به بصورة فائقة الود .. هكذا سلم على السيد (تيمور) مبتسماً ثم سلم علي دون أن ينتبه لهويتي .. هل هي السنين الطويلة أم لحيتي الكثيفة التي غيرت من شكلي كثيراً ؟

قام السيد (ثويني) بتنبيهه وراح يذكره بشخصيتي فبدا عليه التذكر بصعوبة وان كان لم يفهم ما علاقتي بالسيد (ثويني) .. بالتأكيد مع رجل مثل هذا طاف عشرات المدن وتحدث مع آلاف الوجوه لابد أن لا يتعرف علي ..

وقفنا معه قليلاً ثم تحركنا من الطابور وجلسنا ننتظر حتى انتهى التوافد وألقى السلطان كلمة رحب فيها بنا وبأهل زنجبار كلهم وأخبرهم أن عهد المزاريع المشاغبين انتهى وعهد النماء والتجارة والثراء لكافة أخل زنجبار بدأ بقدوم رايات عمان الحمراء ..

خطبة قصيرة ثم ودعناه جميعاً وخرجنا صامتين حتى المنزل ..

***

حوار طويل عن مستقبل زنجبار ومستقبلنا دار في الجلسة اليومية ..

كان رأي السيد (ثويني) طبعاً وهو الخبير الوحيد فينا بالسلطان (سعيد) أن هناك أمر ما يدبره السلطان بمجيئه الى هنا .. وجهه لا يحمل نظرة من جاء الى زنجبار ليرحل بسرعة .. بل كأنه يوطد لأمر كبير الشأن في تاريخ زنجبار ويحتاج لدعم أهلها الغير محدود !
ما هو ؟
السيد (ثويني) لا يعلم .. لكنه أكد بأن (سعيد) مغرم بالتجارة وامبراطوريته قائمة أصلاً عليها .. أغلب حروبه قامت من أجل التجارة أساساً وهو في هذا اقترب جداً من فهم أحد أبرز أعمدة حروب السادة البريطانيين !
لذا فالسيد (ثويني) يتوقع مزيداً من الانفتاح التجاري لزنجبار .. والتوسع اللامحدود ..
لكن يا سيدي .. ماذا عن المخاطر ؟
-أي مخاطر تقصد يا (راكان) ؟ مخاطر خضوع زنجبار له وبالتالي خضوعها للإنجليز ؟
- نعم ..
- مع (سعيد) هناك احتمال هائل بأن تقع زنجبار في قبضة الإنجليز نعم .. لكن المثير أن هذه الامبراطورية الكبيرة التي يمتلكها الآن أمر جديد تماماً على الرجل .. اعتقد أنه سيتخلص منهم لحسابه بطريقة ما .. وهم أجبن من أن يشعلوا حرباً كبيرة معه في كل مكان ..
- هل تضمن هذا ؟
- هذا ما آمله يا بني .. بالتأكيد تغير كثيراً في تلك السنوات الطويلة التي ابتعدت فيها عنه وعن مسير الأحداث ..
هكذا مرت الأيام التالية بين أحاديث مستمرة عن التغيرات السريعة الحادثة في زنجبار كتهيئة للسلطان الجديد وبين أثر ذلك على أسرتنا ..

***

في هذه الأيام المتوترة بالذات بلغ السيل الزبى !
لم أعد أطيق .. لابد أن أتزوج .. لو مرت دجاجة أنثى من أمامي الآن لحدثت كارثة !

ما سبب هذه الثورة المفاجأة ؟ لا أدري .. لكن التوتر - على عكس ما كنت أعتقد - أصابني بهذه الحالة الصعبة !

فهمت أخيراً معنى (خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا) ..

نعم .. في مثل هذا الهياج والتوتر في نفسي وفي زنجبار لم يعد (السكن) هو المنزل والأهل .. أصبح السكن بالنسبة لي هو فتاة تصبح زوجتي تشاركني كل شئ ..

هكذا أكتشف أن الأمور الجنسية التي تؤرقني مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالعاطفة والهدوء .. هذا اكتشاف جديد علي وقد كنت أظن كلاهما مختلف !

حتى عبادتي تأثرت .. وهي مقياس حساس للغاية لحجم التوتر الثائر بداخلي .. لكن هذه الهجمة الشرسة الأخيرة أصبحت كارثية .. لابد من الزواج .. لكن من ؟

***

(مهدية) هي إبنة (أمين) التي شارفت على السابعة عشر الآن .. فتاة رشيقة جميلة تعمل في الحقل وترحل مع أبيها مساء كل يوم بعد نهاية جلستي معه ..

زنجية لكنها جميلة .. ورثت بكل تأكيد ملامح أبيها الدقيقة .. وأنوثتها -كعادة الزنوج - لا جدال فيها ..

هكذا فكرت فيها وسط ثورتي الداخلية ..

لماذا (مهدية) بالذات ؟ لماذا بنت عبد بالذات يا (راكان) ؟

هكذا كان سؤال (ثويني) الغاضب علي حين فاتحته بالأمر !

- انها فتاة أحببتها .. فيها أدب جم وقد وقع عليها اختياري دون اعتبار لأي شئ سوى تدينها وهي في هذا مشهورة بالورع ...

- لكنها بنت عبد ! وأنا لا يرضيني أن أزوج ابني لإبنة عبد !

- أبي ! (أمين) لا يستحق منك هذا الاحتقار ! وأنا لا أؤمن بأن هناك عبد لغير الله .

توقف السيد (ثويني) عن الحديث وهو ينظر لي في ذهول من كلماتي الأخيرة .. كيف يجيب علي بهذا المنطق الذي يصدمه للمرة الأولى ؟

اللعنة .. لقد تجذرت العبودية هذه حتى أصبح مجرد مناقشتها أمر عجيب !!

ظل السيد (ثويني) صامتاً لدقائق .. كان يتأملني دون حرف ..

أكاد أعرف ما يدور بداخله الآن .. انه بالتأكيد لا يريد استمرار النقاش معي لأنه يعرف أنه ما دمت قد أظهرت منطقاً غريباً بالنسبة له فبالتأكيد لدي فكر قوي مدعوم بالآيات والسنن و الفتاوى ورؤية الواقع .. وهو يصاب بالإرتباك كلما دخل معي في أحد هذه النقاشات الجديدة عليه فأصبح يتحاشى حدتي وأدلتي وتهافت منطقه أمامي مقدماً ..

لكن .. الزواج ؟!

هل يستسلم و يوافقني بهذه السرعة ؟

- هل تعاقب نفسك بسبب المسألة القديمة ؟

توجست .. أي مسألة يقصد ؟

- مسألة محاولتك الزواج من (فاطمة) !

نهضت كالملسوع .. (فاطمة) ؟ يا لغبائي ! بالتأكيد (تيمور) الثرثار حكى له الحوار القديم ..

لماذا كلما مر الزمان أكتشف حجم حماقتي الكبير !

- كنت تعرف كل هذا الزمن ولم تحدثني ؟

- وأنت كنت تعرف كل هذا الزمن ولم تحدثني ؟! ألست أبيك ؟

ثم تنهد وأكمل :

- فلتعلم أني كدت أقاطع (تيمور) على فعلته .. لكنه بالفعل رجل ساذج يا بني ولم يكن يعرفك ولم يكن ليفهم منطقك الغريب ..

- هذا الأمر نسيته تماماً ..

- أبداً .. لم بقيت كل تلك السنوات بلا زواج ان لم يكن عجزك عن النسيان هو الدافع ؟

لماذا يقع اختيارك على ابنة أحد العبيد بالذات كي تتزوجها كأنما تتعمد اهانة الأعراف التي أعجزتك قديماً ؟

كذب .. كذب ..

بل حق يا (راكان) .. الرجل جعلك عارياً للمرة الأولى ! لماذا المكابرة أكثر من هذا وأنت الصداع بالحق ..

عيناي تشعران بحرارة .. هل هذه دموع ؟ تباً !

شددت من قامتي وقلت في حزم عجيب وسط دموعي :

- سيدي .. اسمح لي بالرحيل من زنجبار إن أصررت على موقفك !

تغير وجهه فوراً الى الذعر وانتفض هو الآخر قبل أن ينهض من مكانه سريعاً ويمسكني من كتفي قائلاً في غضب مذعور :

- قلت لك لن أتركك لنفسك ! قلت لك انك هدية الله عوضاً عن ابني ! كيف تفكر في ترك أبيك ؟ كيف تفكر في تركي بعد كل ما فعلته !

للمرة الأولى أجده يبكي بعد هذا الانفعال الشديد .. سقط على الكرسي وراح ينتحب أمام عيناي المذهولتان ! مستحيل أن ينتحب هذا الأسد .. مستحيل !

يالبكاء العجائز الذي يمزق القلب ويشعل الجحيم في الأحشاء !

هكذا ركعت أمامه واحتضنت رأسه أطمأنه بأني لن أتركه .. هو أبي ولن أتركه .. لكني رجوته بأن يقف بجواري في زواجي هذا ..

هدأ ببطء ثم بلهجة حزينة خائرة أخبرني بموافقته ..

***

في تلك الليلة كنت مع (أمين) على الشاطئ .. يثرثر كعادته ..

قاطعته قائلاً في حزم :

- أمين .. زوجني ابنتك !

١٥

كانت (مهدية) زوجة طيبة .. فتاة صغيرة عادت بي سنوات كثيرة للخلف ! ليوم وصلت الى زنجبار !

انتقلنا إلى منزل صغير جديد شيده لنا السيد (ثويني) في جزء من أرضه ، وزاد من الكرم باقتطاع جزء لا بأس به منها وكتبه باسمي .. وزودني بمبلغ ممتاز لأبدأ به تجارة مجاورة للأرض ..

قام بتحرير (أمين) وكل أهله .. وأصبح يدعوه الى جلسة الظهيرة كسيد محترم معنا .. ووكل اليه شئون أرضه باستقلالية كبيرة ورفع شأنه جداً في المنزل ..

سخاء كالمطر نزل على الجميع لكن الأسباب كلها لم تكن لتغيب عني !

هو خائف من الموت دون أن يكون لي نصيب من الأملاك ، هذا ظهر واضحاً في هذه الفترة ، ولم يكن لدي تفسير سوى أن هناك جبهة (معارضة) شرسة في أسرته لا تحبني ، وأفرادها ليسوا سوى واحد فقط : زوجته !

لا أعرف ما السبب لكن حتى بعد زواجي لم أجد معاملة مريحة من هذه السيدة ولم تكن زوجتي تحبها بل زادت كراهيتها بعد التحرير وبعد الزواج وتعامل السيدة الذي زاد عجرفة ..

والسبب لتحرير كافة أسرة (أمين) معروف وسهل طبعاً : السيد (ثويني) لن يقبل بأن يكون نسبائه من العبيد .. هذا مستحيل طبعاً !

مع نهاية العام الثاني جاء ابني (محمد) بلون بشرة أمه ..

هل صنع هذا فارقاً معي ؟

أكون كاذباً لو قلت لا ! الحقيقة أنني تمنيته ببشرة أخرى لأن هذا العالم ربما يقسو عليه بلا منطق بسبب لون بشرته ، لكن برغم كل شئ فزنجبار بها زنوج يعيشون في أماكن راقية بجوار ذوي الأصول العربية والشيرازية وهم يعيشون بسلام كبير .. على الأقل لن يجد مصاعب على هذه الجزيرة ..

وبالطبع لم يؤثر هذا في حبي لوليدي قيد أنملة .. عشت مشاعر الأب المضطربة كلها دون أن أفكر في لونه ، ومع الوقت لم أعد أرى في وجهه سواد أو بياض ، أنف كبيرة أم صغيرة ، أصبحت أرى فقط (محمد) ابني كلما نظرت لوجهه ! هو ابني وكفى ..
هكذا على المستوى الشخصي كانت حياتي قد بدأت في الاستقرار والاستقلال ..
أما على مستوى زنجبار فقد فوجئ الجميع بالسلطان (سعيد) يقرر بعد سنوات قليلة من قدومه إعتبار (زنجبار) عاصمة لإمبراطوريته !
هكذا صدمنا هذا الخبر السعيد الذي ترافق مع هجرة كبيرة للعرب العمانيين التجار والمزارعين الى الجزيرة فزادت ازدحاماً و نشاطاً وزادت رفاهية أهلها ..
و أصبحنا نتردد على مجلس اسبوعي للسلطان سعيد ، يحدثنا فيه عن آماله وطموحاته ، عن مستقبل زنجبار الذي صمم على أن يجعله مزدهراً ، نظل عدة ساعات معه نتناقش ثم نرحل .. ومع الوقت بدأ السيد (ثويني) يعتذر عن الذهاب بسبب كبر سنه ، بينما أصيب السيد (تيمور) بمرض في قدمه جعل تحركه أمر جهيد ، فانتقل المجلس اليومي الى منزله ، وأصبحت أنا الممثل الوحيد بداخل مجلس السلطان لثلاثة منازل و ثلاث أسر !
مستحيل تقريباً أن تجد مثيل لي ولظروفي الغريبة !
هكذا تمضي الحياة هنا في زنجبار في ثلاثينيات القرن التاسع عشر ..
وهكذا يجد ابني الثاني (مهيب) طريقه الى الحياة !

***

اشتد المرض بالسيد (تيمور) ، وهكذا في أيام قليلة بعد الحمى ودعناه الى قبره .. رحل الرجل الثرثار أكثر من تسبب في شقائي برغم طيبته .. لم أكن أكرهه مع ذلك و حزنت جداً لموته .. حياتي بالتأكيد لن تعد كما كانت ..
اشتد التأثر بالسيد (ثويني) وزاد همه بإنشغالي الشديد في زراعة الأرض بالقرنفل وهي الزراعة الجديدة التي طلب منا السلطان (سعيد) ادخالها الى زنجبار ..

أبدى لي تبرمه من الوحدة ومن رحيل السيد (تيمور) ، بينما رفضت أرملته أي اشراف لي على أرض زوجها المتوفي ، وتولى أزواج بناتها أمورها المالية .. هكذا أصبح تركيزي كله منصب على العمل في أرضي وأرض السيد (ثويني) ..
ولم ينقض العام الثاني على وفاة السيد (تيمور) حتى لحق به السيد (ثويني) فجأة دون انذار !

***

يمكنني أن أحكي كثيراً عن حالة الضياع الرهيبة التي عشتها في تلك الأيام !
لقد مات الرجل بعدما قام بزرع نفسه عميقاً بداخلي ، لم أكد أفيق من صدمة وفاة السيد (تيمور) حتى دهمتني مصيبة أكبر وهي موت من كان أبي ومرجعي في هذه الحياة ، الرجل الذي لم أر منه منذ وجدني إلا كل خير .. يالها من مصيبة ! صدقت يا ربي وأنت الصادق عندما وصفت الموت بالمصيبة .. من ذا الذي يعتبره أمر عادي لابد من تقبله ببساطة ؟
شعرت بالضياع .. بالخواء .. بالخوف من مستقبل أصبحت أقتاده وحدي دون رجل كبير يوجهني ولو كنت حتى أرفض هذه التوجيهات !
واساني السلطان (سعيد) وهو محزون بما حدث ، و فوجئت به يعطيني أرض كبيرة في زنجبار كي انتقل اليها !
لماذا فعل ذلك ؟
لا أدري على وجه اليقين السبب ، لكنه بكل تأكيد يعرف كل كبيرة وصغيرة عني وعن أعمالي ولربما عرف أني لم أعد أدير سوى قطعة صغيرة من الأرض وهي التي أعطانيها السيد (ثويني) رحمه الله ، فقرر نقلي الى قطعة أكبر وأملاك أكثر !
لقد كان يريدني من كبار القوم في زنجبار ، هو بالمناسبة اقترب مني كثيراً هذه الأيام وذكرته بشخصي ويوم لقيته ومشروع التأريخ فتذكرني لأول مرة منذ جاء الى زنجبار !!

ضحك بشدة وأخبرني أن الاستقرار الذي وجده في زنجبار قد جعل ذاكرته وصحته أفضل بكثير من التنقل المستمر الذي عاشه في عمان .. هكذا لم يرضه أن يكون أحد معارفه القدامى من أصحاب الأملاك الضئيلة .. و بهذا انتقلت الى أرضي الجديدة ..

***

ماذا عن أرملة السيد (ثويني) ؟
هي الأمانة الكبرى التي تركها الرجل ، فكيف تتخلى عنها يا (راكان) ؟
الحقيقة أنني لست من تخلى عنها ! بل ربما أكرمت الرجل في قبره بما فعلته معها !
المرأة بعد وفاة زوجها صممت على أن بيتي وأرضي تابعة لأرضها ، وليس لي أي حقوق فيهما !
استعانت علي بـ(موتابو) و أزواج بنات السيد (تيمور) الذين أصبحوا يتحكمون في الأرض ، ونقل لي (أمين) حوارات سمعها أكدت أنهم حرضوها بقوة على الذهاب الى آخر الطريق ! الى حد طردي من أملاكي ولو بالقتل !
هل كان هذا هو السبب في كرم السلطان (سعيد) السابق ؟ هل أدرك برؤيته الواسعة لكل بيوت وأسرار زنجبار أن هذه المؤامرة كانت تتم من ورائي فأجهضها مبكراً ؟
هكذا خرجت من منزلي دون أن أشكو الى السلطان الذي بدأ يعتبرني صديق شخصي له ، ولو أردت أخذ كافة حقوقي ومعاقبة الجميع ما كان ليصبح أيسر من هذا الأمر على نفسي !
لكن هل هكذا يكون رد الجميل مني للرجلين المتوفيين ؟
ولماذا أفعل وقد عوضني الله بما هو خير ؟

***

بدأت المشاكل في المنزل الجديد بيني وبين (مهدية) !
كانت مع الوقت وشعورها بالسيادة والانتقال من طبقة الى أخرى قد بدأت تتعامل بعجرفة وعصبية مع كافة العبيد الخدم ، بل بدأت تتعامل معي أنا نفسي بعصبية لرفضي هذا التعامل !

بدأت المشاجرات ، نقاط كبيرة سوداء كالحبر تتساقط يوماً وراء الآخر في نهر زواجنا ضيق المجرى شحيح المياه ، تذوب مع جريانه نعم ، لكن تساقطها المستمر كفيل بتحويله الى اللون الأسود بصورة دائمة ان استمر الوضع على هذا الشكل السخيف !
انشغلت بتربية الأبناء على الأفكار التي آمنت بها طوال حياتي و دونتها في كتب آثرت أن أجعلها دليلاً لي و لهما ، وانشغل (أمين) بمزرعته وهكذا خلت حياتي للمرة الأولى من أي رفيق يسامرني ..
سوى السلطان !

***

السلطان (سعيد) شخصية غريبة ، آسرة بكل تأكيد وقد بدأت أسامحه على الكثير منذ جاء الى هنا ، لكن في الفترة التي اقتربت منه فيها بدأت أستشعر الخطر القادم !
انه يستقبل وفود الانجليز الذاهبة والغادية .. ينفذ أغلب طلباتهم التي كانت تأخذ في بعض الأحيان - وعلى مسمع ومرأى مني - صورة الأوامر !
مبهور هو بهم بصورة كبيرة ، لكنه يخفي انبهاره هذا بحنكة عجيبة ..
انتقل الى قصر أنشأه لنفسه اسمه (بيت الموتني) وهو قصر كبير بالنسبة لزنجبار محاط بالأشجار أمام البحر ويمر فيه نهر صغير من أنهار الجزيرة الرائقة ..
وفي هذا البيت أصبح يستقبلني بكثافة أكثر من المعتاد ..
كان سعيداً للغاية بتوقيع عشرات المعاهدات مع انجلترا وفرنسا وحتى بلاد عجيبة أسمها الولايات المتحدة الأمريكية لم أسمع عنها قبلاً ، حتى إنه أرسل سفيراً لبلاده فيها فكان هذا من أعجب الأمور التي ما رأيت لها مثيل من قبل !
طلبت منه التريث في الخوض مع هؤلاء ، فعلتها برغم أني آثرت على نفسي ألا أحدثه في أمور الحكم لأنه يأخذ هذه الأمور بحساسية بالغة .. لكن ذلك الاندفاع الشديد منه نحو هؤلاء الناس وأفكارهم كان مقترناً بتجاهله للعالم الشرقي الذي حاربه وعاداه طويلاً !
ظهرت مشكلة نفسية لدي هذه الأيام : لماذا لم أعد بذات جرأة الماضي في قول الحق ؟

لماذا أصبحت أخفي أفكاري الحادة برغم أني لازلت أؤمن بها ؟
لماذا كلما فكرت في مجابهة السلطان بقوة جائتني صورة مهيب ومحمد وهما يدوران معي بين الجزر بلا مأوى ؟
هل الزواج والأبوة يعطلان روح الوثوب ؟ يعطلان روح الجهاد ؟
حاولت الابتعاد عن مجلسه ما دمت لا أقوى على قول كلمة الحق واضحة شافية ، لكن خاب مسعاي كل مرة بطلبه (وأمره) أن أذهب اليه كل يومين !
وبداخلي كان هناك مزيج عجيب من الرغبة في تركه والرغبة في استمرار مجلسي معه كصديق وحيد متبق لي في زنجبار !
ومزيج آخر غريب بين كراهيتي له لخضوعه وانسحاقه أمام الأوروبيين مخالفة لكل ما أؤمن به ، وحبي له كرجل اعتبرني صديقاً شخصياً يحكي ليكثير من همومه وطموحاته ..
هكذا مر وقتي معه ، وأزدهرت بالفعل زنجبار بسرعة ، زراعة القرنفل نجحت بامتياز وأصبحنا مصدرين كبار في العالم كله ، تضخمت ثروتي بصورة مجنونة وهكذا حدث لغالب سكان زنجبار ..
المدينة أصبحت ترفل في الخير والرخاء .. حتى مسقط نفسها لم تكن تحصل على نصف ما نعيشه من رخاء و وفرة و يسر !
وفي وسط هذا وقع السلطان سعيد على اتفاقية خطيرة رضوخاً للانجليز ..!
اتفاقية تحرير العبيد ومنع تجارتهم في زنجبار ..
واشتعلت الجزيرة فجأة بلا انذار !

١٦

وسط ظلام ليل (زنجبار) المدلهم ، كان يتحرك التاجر (ضرغام) أحد مشاهير أعيان (زنجبار) وحده ..

هذه الليلة سهر طويلاً مع أصدقائه ، فلم ينتبه الا و قد جاء منتصف الليل ..
هكذا يتحرك في عجلة وسط الطرقات التي يحيط ببعضها الأحراش من الجانبين .. كزنجباري أصيل لم يكن من المفترض أن يشعر بأي خوف في جزيرة الأمن والأمان هذه .. لكن الظروف التي تمر بها الجزيرة هذه الأيام مخيفة ..

(وقف مكانك) !

انتفض رعباً وهو ينظر مذعوراً الى سبعة أشباح سوداء خرجت من الظلام مدججة بالسيوف .. انهم هم !

هكذا دون تفكير استدار يركض في الاتجاه العكسي بارتياع شديد ، لكن أحدهم قذف عليه خنجراً انغرس في كتفه .. لا مجال للتوقف والألم ! اركض بكل قوتك ..

ظل يركض وهم وراءه لمسافة قصيرة حتى وجد ركب من خمسة جنود ذاهبين لمهمة .. سقط من الاعياء أمامهم بينما اختفى مطارديه فوراً ..

لقد نجا بأعجوبة ..

***

في اليوم التالي أثناء زيارتي للسلطان جاء أحد الجنود يخبره بما حدث مع التاجر ضرغام .. كنت أعرف أن الجزيرة منذ تحرير جزء من العبيد قد أصابها الجنون ، العبيد لا يعرفون مكاناً ولا عملاً آخر غير الزراعة في مزارع أسيادهم والراحة مساءً أو مواصلة العمل الحر في أماكن أخرى ، بمجرد توقيع الاتفاقية وصدور أوامر السلطان بالتحرير ثار الكثير منهم ومن أصحابهم على القرار !

الحقيقة أن العبيد فعلاً لولا الاجراءات الاجتماعية المهينة لهم ، لكانوا من أسعد العمال على وجه الأرض ، وقد حكى لي السلطان سعيد عن أهوال يلقاها عمال بل جنود بريطانيا تتصاغر بجوارها وضعية العبيد ..

وهكذا خرج المئات من العبيد الذين تحرروا ليعملوا مباشرة في قطع الطرقات والسرقة بل والقتل !

و ساد الاضطراب زنجبار بالكامل ، ولا شك أن بعض التجار الهنود والأفارقة والعرب لهم يد في نشر هذه الفوضى كرد فعل على الاتفاقية وكمحاولة لإثناء السلطان عن قراره ..
موقفي القديم الرافض للعبودية باق كما هو طبعاً ، لكني كنت أنظر في شك شديد لغرض (انجلترا) من هذا الأمر ..
أخبرت السلطان بشكوكي فضحك بشدة !
أخبرني أنه ليس بأحمق طبعاً .. الانجليز قادرون على سحق أمة بأكملها بكل بساطة إن هددت تجارتهم ولو تهديد بسيط .. فمن أين لهم بالأخلاق التي تسعى لتحرير العبيد ؟!
المسألة كلها أنهم يحاولون تدمير هذه التجارة المنتشرة في سواحل شرق افريقيا بشدة ، من المستحيل عليهم منافسة المتمرسين فيها سواء هنود و أفارقة وعرب هنا أو برتغاليين وغيرهم في الساحل الغربي لأفريقيا .. وما داموا غير قادرين على المنافسة في أمر ، فليسعوا لإلغائه تماماً !
هذه هي المسألة كما كان يراها السيد (سعيد) .. ربما لذلك كان يحاول نشر زراعة القرنفل المدر لأرباح هائلة لكي يعوض خسارته من تجارة العبيد !
وكانت هذه المرة الأولى التي أشعر فيها بوعيه بالقذارة الكامنة في الأوربيين .. منذ جاء الى زنجبار ومخالطتي له طويلاً وأنا أكتشف أنه في أعماقه يحتقر هؤلاء الانجليز ويسعى بكل الطرق أن يكون مثلهم في نفس الوقت !
عقدة غريبة جداً لا يعرفها الا صديق له ..
حثثته على المضي قدماً في تحرير العبيد لكن بإيجاد وسيلة لاحتواء الأمر .. ان الكثير منهم رفض التحرر فعلاً وفضل البقاء مع سادته !
التحرر بالنسبة للعبد أصبح يعني ضياعه وضياع أولاده بلا مصدر رزق .. فأين المفر ؟
لكنه أخبرني أنه مجبر للأسف .. وان كان قد توقع أن التجار سيمارسون الأمر سراً الى حد ما .. وأفصح لي عن نيته في تركهم وشأنهم مادام الأمر سراً ! هكذا لا يستطيع الانجليز مضايقته !

كان الجنون يكاد يصيبني من الهوان الذي يظهره ، هو سلطان له أراض وبلاد في قارتين ومع ذلك يخاف من عقاب الانجليز كالطفل الصغير !
موقف مقزز .. ولا أعرف كيف يقبله حاكم عاقل على نفسه !
تطرق الحديث بعد ذلك الى مخاطر الدوران في فلك الانجليز .. أخبرته أن التاريخ والعقل يؤكد أنهم سيستمرون في اذلالنا .. سيستمرون في التدخل باستمرار .. و لن نستطيع الإفلات منهم إن جئنا بهم برغبتنا ..
أكد لي بأنه على وعي بأساليبهم .. ولن يسمح لهم بالتدخل لهذه الدرجة !
وجدته فجأة يغير الموضوع كما يفعل كلما رفض النقاش في مسألة علاقته الحساسة بإنجلترا .. حدثني عن مشكلة الأرض القديمة مع أرملة السيد ثويني .. وما اذا كنت أفهم سبب الظلم الذي حدث ..
- الطمع .. الحقد .. لا أدري صراحة ..
عبث بخاتم في اصبعه وقال وهو لا ينظر لي :
- أتعرف السيدة فاطمة بنت السيد تيمور ؟
كاد مخي ينفجر ! ما هذا السؤال ؟!
لم أجب طبعاً وان كانت عيني قد اتسعتا في تساؤل مندهش .
- الحقيقة يا (راكان) أن فاطمة هذه هي من أشعلت الحرب ضدك وهي من أضرمت النار في علاقتك مع زوجة السيد (ثويني) .. ليس بمقدوري طبعاً معرفة السبب لكن بمقدوري معرفة المُسبب !
كان مخي يغلي ويغلي .. لا مجال للتفكير في هذه المفاجأة الصاعقة ، سألته عن مصدر أخباره فضحك ضحكة مقتضبة دون اجابة وان كان قد نظر لي في سخرية !
فهمت ! لا يُسأل في هذا سلطان !
سألني مرة أخرى عن السبب في رأيي ، فأخبرته بأني لا أدري .. ظل ينظر لي في شك لثوان قبل أن يخبرني بقدرته على استرجاع أملاكي وعقاب المخطئ ..

- هذا أمر ناقشناه منذ سنوات يا مولاي .. و علاقتي بهؤلاء انتهت !
- كما ترغب .. واعذرني ان كنت قد ذكرتك بها لكن الثرثرة المستمرة لأزواج بنات السيد تيمور في مجلسي معهم جعلتني أتسائل عن علاقتك بها وسبب هذه الحرب التي دارت من خلفك !
- لا أعرف .. لكن هل معنى هذا أن زوجها حضر هذه النقاشات ؟
- زوجها يا عزيزي هو من أخبرني بنفسه ! الحقيقة أنه يكرهك بشدة دون أن أعرف السبب أيضاً .. لكنه كذلك غير سعيد مع زوجته (فاطمة) هذه .. تزوج عليها زوجتان واقتنى عدة جواري كي يخرج من نطاق تسلطها المجنون !
بعد كل هذه السنوات ؟ لقد مر حوالي عشرين عاماً على لقاء المساء الباكي .. ومن وقتها ولا أعرفها .. والحقيقة أنني لم أعرفها مطلقاً بالفعل ! هي ليست ملاكاً كما كانت تبدو !
لكن الصدق والحق يقتضي أن أعترف أن ما شعرته يوماً نحوها لم أجده نحو امرأة أخرى ولا حتى زوجتي !
العواطف البكر كثيراً ما تكون متعجلة نكتشف حماقتها فيما بعد ، لكن المؤكد أنها تكون صادقة حارة لا مثيل لها !
لماذا حاربت من أجل افساد حياتي ؟ ما هو السبب ؟
هكذا ظللت شارداً لدقيقة كاملة والسلطان (سعيد) ينظر لي في اهتمام .. ثم فجأة شاعت على وجهه ابتسامة وقال في اقتضاب :
- فهمت !
انتبهت وسألته ماذا فهم فنهض قائلاً بنفس الابتسامة :
- لا يهم يا (راكان) .. الآن عندي موعد مع السفير الانجليزي ..
نهضت فوراً وسلمت عليه ثم غادرت المكان يكاد يقتلني التفكير !

١٧

لماذا تحاربك ؟

هل تمزح ؟ أنت تعرف الاجابة ! الليلة التي بكت لك فيها متوسلة ولم تأبه لها ! أنت جرحت امرأة يا راكان .. فتحمل كيدها ! أنسيت كلام ربك القائل (ان كيدهن عظيم) ؟!

نعم .. لكنها متزوجة منذ سنوات ! كيف لم تدع الأمر يمر ؟

وهل جعلته أنت يمر يا راكان ؟

نعم أم لا ؟

لا تكذب .. أنت تحدث نفسك .. أطلق كل الأفكار الباطنة بحرية وصراحة .. مهما كانت جارحة ..

هل جعلت الأمر يمر ؟

عشر سنوات بلا زواج .. ثم زواج بفتاة لم تكن تحبها فعلاً .. ولم تشعر يوماً نحوها بعاطفة حقيقية ..

مهلاً ! أنا أتحدث عن زوجتي هنا ! أتحدث عن أم أولادي التي رعتني ورعت أولادي طوال تلك السنوات .. أتحدث عن زوجة تصنع الكثير من أجلي ..

جميل .. لكن الحقيقة أني لازلت غير قادر على الشعور الصادق نحوها بمثل شعوري نحو فاطمة ..

يظل السؤال الأول قائماً اذن : كيف تفكر في امرأة متزوجة ؟

لم أفكر فيها بأمر سئ ..

بل تفكر فيها وانتهى .. كم مرة تمنيت بداخل نفسك القذرة أن تصبح حرة ؟!

هل تنكر أنك شعرت بإرتياح داخلي حين أخبرك السلطان أن زوجها غير سعيد وحياتهما مهدمة ؟

ارتياح أنكرته .. كذبت على نفسك من وقتها .. لكن الحقيقة أنه حدث بالفعل !

ما نهاية هذا الأمر ؟
ليس ذنبي .. الأعراف الجاهلية فرقت بيني وبينها .. فسد زواجها بصورة عنيفة وسممت حياتي مع من كنت أعتبرهم أهلي وبدا زواجي ناجحاً لكن باطنه الألم !
لماذا لم يستمع أحدهم لقول رسول الله (لم ير للمتحابين غير النكاح) ؟
هل يمكن لأحد أن يصدق أن عادة جاهلية واحدة متعلقة بالزواج يمكنها أن تدمر حياة اسرتين كاملتين ؟!
أنت أب فاضل بأفكار باطنة مؤسفة .. وزوج جسد بلا روح .. هل تعيش فاطمة مثل تلك الظروف ؟
هل يمكن لمخالفة حديث نبوي واحد أن يجر هذه المشاكل الكبرى ؟
وما العمل ؟
يظل هذا هو السؤال الذي طرحته على نفسك منذ الليلة المشئومة : ما العمل ؟
هي متزوجة وأنت متزوج .. لابد أن تنساها كي تتجنب عقاب ربك الأخروي .. لكنك لا تنسى حقيقة .. معالم حياتك الزوجية تؤكد أنك لم تنس وغير قادر على فعل هذا !
ماذا عن تجربة الهدي النبوي الآخر ؟
لماذا تقيد نفسك ؟ لماذا لا تتزوج ثانية ؟
هل عقمت النساء أن تلدن مثل هذه الفتاة ؟ توكل على الله يا رجل وتزوج مرة أخرى ما دمت لم توفق للحب في زواجك الأول ..
هكذا بدأت حوارات أخرى وتساؤلات أكبر في داخلي حتى قطعها صراخ قادم من المزرعة .. هرعت بسرعة الى الخارج .. كانت (مهدية) مشتعلة غضباً وتصرخ في واحدة من العبيد وتنتهرها بعنف بالغ .. بينما باقي العبيد وقفوا من بعيد يراقبون المشهد المؤسف بوجوه خالية من التعبير !
وصلت الى المكان وأمرت مهدية بالصمت .. كانت غاضبة بحق وكادت تكسر أمري فنهرتها وأمرتها بالدخول للمنزل وعدم اثارة الفضائح .. تحركت في عنف تدق الأرض بقدميها غيظاً

وغضباً بينما التفت الى المرأة وسألتها عما حدث فوجدتها تنفجر في البكاء و تعتذر عن خطأ تافه !

تباً .. لا أتحمل بكاء النساء ولا أظن أن هناك رجل عاقل بمقدورة معاقبة امرأة تبكي !

هكذا صرفتها بعدما واسيتها قليلاً ثم اتجهت الى منزلي ..

كانت (مهدية) جالسة في غرفتنا تغلي ، فما ان رأتني حتى اندفعت تهدر وتسب في العبيد والخدم وصنوفهم وتلومني على الوقوف في صفهم !

ظللت صامتاً أمام هذه الثورة ، حتى وصلت لمرحلة قاطعتها وأنا أقول ضاغطاً على كلماتي :

- كلنا عبيد الله .. ولا عبد لبشري .. هم بشر لهم مشاعر وحقوق مثلنا تماماً .. أم نسيت ؟!

آه .. مؤلمة هذه الكلمة الأخيرة !

هكذا وجدتها تنظر لي في ذهول أخرس وعيناها قد اغرورقتا بالدموع .. جلست على السرير وهي ما زالت ذاهلة .. ثم إنهارت باكية !

شعرت بضيق هائل في النفس .. يا أخي كان بامكانك أن تقول ألف كلمة عاتبة غير هذه الكلمة القاسية .. ماذا حدث لك يا رجل ؟

جلست بجوارها على السرير واحتضنت رأسها وقبلته معتذراً .. دفعتني بعنف ثم وقفت قائلة :

- أنت غير قادر على النسيان ! أنت لا تحبني حقيقة ! كل هذه السنوات ولازلت لا تحبني ؟ ماذا ؟ بالله عليك أنا غير قادر على تحمل المزيد !

- من الذي أوحى لك بتلك الأوهام ؟

- ليست أوهام .. ان كنت تؤمن بأنني بشر مثلك فلابد أن تعرف أني قادرة على الاحساس .. انت لم تحبني أبداً !

ليس الآن ! ليس الآن ! كيف أفاتحك بالزواج من أخرى بعد هذا الحوار ؟!

- بل أوهام .. أنت أم أولادي وزوجتي وحبيبتي .. ان زوجة أي رجل هي حبيبته بالضرورة !

يا (راكان) يا كاذب ! يا كاذب يا كاذب !
لكن ماذا أفعل ؟
- أنت لا تظهر لي شيئاً من ذلك أبداً .. دائماً في عالم آخر وأفكار أخرى .. هل لازلت تفكر في العقربة (فاطمة) ؟!
تغير وجهي فجأة الى غضب شديد ! هل هناك شخص في شرق أفريقيا مازال لا يعرف علاقتي بها ؟! اللعنة .. كيف يعرف كل هؤلاء الأشخاص ذلك وأنا لا أتحدث عنه ؟ بل لم أرها منذ ما يقارب العشرين عاماً ! هل حياتي مفضوح فيها أمري هكذا ؟ من أبلغ زوجتي ؟ أمين والدها طبعاً ! لا .. بل الأغلب أنه حكى لأمها وهي قد سربت الأمر لابنتها !
- كيف تفكرين هكذا ؟ كيف تتهمينني بالتفكير في زوجة أحدهم ؟
كاذب آثم ومجرم .. اعترف لنفسك يا من ستقف يوم القيامة عارياً تشهد عليك أعضاؤك أمام الله بما تخفيه !
هكذا أجدها قد انكمشت كثيراً بعد نبرة الغضب الثائرة هذه !
دار نقاش فيه عواطف كثيرة هدأت من روعها و انتهى بلقاء .. بعد قليل كانت تغط في نوم عميق في حضني ..
إنها طيبة بلا شك .. أفعالها مع العبيد محيرة لكن من الواضح أن هناك عقدة نفسية قديمة لم يحلها زواجي بها .. بل يبدوا أنه زادها تعقيداً !
هذه المرة الأولى التي تحدثني فيها بهذه الصراحة ! هذا أمر غريب جداً ! كنا نعيش دائماً في احترام وود كزوجين .. لكني أعترف أن هذه المعركة قربتني لها أكثر من كافة تلك السنوات السلمية (الباردة) !
أما الآن ..
وقد هدأت من ثورتها وجعلتها مطمئنة ..
اعترف لنفسك أنك أحقر كثيراً مما تتصور .. تفكر في نصرة أمة المسلمين وتقسو على هذا وذاك بينما أنت المليء بالمصائب الكبرى !

كاذب كاذب ! هذا هو أنت بكل بساطة ! والمشكلة أنك لازلت تقسو على سعيد وغيره ! سيحاسب هو على ولائه للكافرين وسيحاسب على رضوخه للإنجليز .. لكن هل تظن أنك ستفلت من الحساب أنت الآخر ؟ أتظنه هو قذر وأنت ملاك طاهر ؟ هاهي السنوات تمر وعقلك ينضج لكن نفسك تزداد اثماً ! كيف تنصحه بعد هذا وأنت ملئ بالوسخ ؟

نهضت بلطف من جوارها .. عقلي سينفجر .. ذهبت للاغتسال ثم توضأت استعداداً للصلاة ..

تظل الحقيقة الوحيدة الثابتة يا راكان .. أن بكاءك في السجود طالباً من ربك الرحمة .. هو ما يبقيك حياً الى يوم آخر معتقداً في نفسك أنك قد تبت ! والا فالموت هو المطلوب !

***

في طريقي لقصر السلطان .. سأناقشه اليوم في أمر خطير ..

لابد أن أجابهه بالحق مهما تكن العاقبة !

هل فكرت في مغبة ما ستفعله ؟

لا يهم !

لابد أن أعود الى (راكان) القديم ! لا أعرف كيف لكني أشعر أن التوقف عن محاولة اصلاح شأن المسلمين جعل نفسي تصاب بالخرب ! لقد أصبحت أنا نفسي جزءاً من هذا الخراب ! ولا أعرف لماذا أشعر أن محاولة اصلاح الأمة مرة أخرى ستجعلني أستعيد هذه الثقة القديمة في نفسي ! ستجعلني أنتصر على هذا الخذلان وتلك المشاعر القذرة بداخلي !

سأقف لأواجه السلطان سعيد بكوارثه مهما كانت العاقبة ! لن أكون شيطاناً أخرس يسكت عن الحق !

سأوجهه ولن أندم أبداً .. هذا هو ما أؤمن به الآن !

هكذا أذن لي الحرس بالدخول .. وجدت عنده مجموعة من الانجليز !

كالمعتاد !

جلست بجوار أحد أئمة زنجبار الاسلاميين .. كان وجهه ممتقع وفمه يرتعش !

ماذا هناك ؟
رحب بي السلطان (سعيد) بإيماءة سريعة تطلب مني الانتظار حتى ينتهي من حديثه مع الانجليز ..
تابعت حوار الترجمان .. كان الانجليز يشكرونه جداً .. معهم رجل يرتدي ملابس سوداء ! قسيس أوروبي كالمعتاد وقد رأيت بعضهم في زنجبار في الشهور الأخيرة .. الحجة كانت رعاية الحامية الانجليزية التي ترسوا هنا !
بادلهم السلطان الشكر والتحية .. وأعطاهم خطاباً أبلغهم أنه عهد أمان يضع أي شخص يحاول الوقوف في وجوههم تحت طائلة العقاب الشديد من سلطان شرق أفريقيا نفسه !
هدية ثمينة طبعاً .. طاروا بها فرحاً .. خرجوا من القاعة بعد عشرات التحيات والوعود بعلاقات كبيرة ومستقبل زاهر بين مملكتهم وبين مملكة السلطان !
ما ان خرجوا حتى وجدت الشيخ ينتفض غاضباً .. وقف للسلطان قائلاً :
- مولاي .. مولاي ! بالله عليك كيف هذا ؟ والله سيبتلعنا البحر يوماً عقاباً من الله على ما حدث !
هز السلطان رأسه وقال بلهجة منذرة :
- شيخ أحمد .. لاحظ انك تخاطب السلطان .. هل تظن أني أفعل ما يغضب الله أو يعرض سلطنتي للخطر ؟
- يا مولاي .. تسمح لقسيس أوربي بالحرية في تنصير مسلمي شرق أفريقيا .. ثم لا يجيئنا غضب الله ؟
- هو رجل دين فاضل .. انه سيدعوا الوثنيين لله .. لابد أن نتعلم من هؤلاء الناس حرية اختيار الدين المناسب !
هنا وقفت كالملسوع وقد فهمت غير مصدق ! كان الشيخ أحمد ينتفض غضباً ويهدد بحدوث كارثة لكني تدخلت في النقاش أسأل في ذهول :

- حرية اختيار الدين المناسب ؟! يا سلطان المسلمين .. أتسمح لرجل نصراني بالدعوة لدينه بين صفوف المسلمين ؟

أشار لي السلطان (سعيد) باصبعه قائلاً في إنذار وعيناه تتسعان غضباً :

- توقف أنت يا (راكان) .. أنت شخص متعصب لن تفهم !

هذه هي يا راكان .. لقد ساعدك بأن جعل السيل يبلغ الزبى .. هذه هي فاهجم يا رجل وليكن ما يكون !

- والله ان التعصب لدين الله الحق لشرف .. وان التفريط في تقديسه لخيانة .. ووالله لا يكون أبداً أن أسكت على أمر سيجلب غضب الله على زنجبار هذه يوماً !

انتثر السلطان (سعيد) قائماً في غضب هائل وهو يستل سيفه صارخاً :

- خيانة ! قلت لك توقف يا أحمق ! سأجعلك تندم على كلامك هذا !

- بل والله انها لخيانة لله ورسوله .. وسيلعننا أهل افريقيا و المسلمون كلهم يوماً ان صمتنا على هذه الجريمة وجعلناها تمر .. سيجعل الله حتفنا على أيدي هؤلاء الذين سمحنا بضياعهم !

تحرك في عنف نحوي فتحفزت .. مرحباً يا (راكان) بالأيام الخوالى ! ستقتل السلطان هذه المرة ؟

توقف في منتصف الطريق مفكراً .. ثم نادى الحرس فدخلوا وأمرهم بالقبض علي وعلى الشيخ أحمد ..

لا لن أسمح ..

جاءت في ذهني فكرة مجنونة وسط الجو المشتعل .. هذا الملعون مصدر الشر .. فلأنهي حياته و ليكن هذا ختام حياتي بشهادة في سبيله تمنيتها كثيراً ..

هكذا لم أفكر كثيراً ، ما إن اقترب الحراس راكضين حتى هجمت عليهم فجأة .. حاولت الحصول على بندقية أحدهم .. لكني فجأة شعرت بالخوار ..

ألم هائل سرى في فخذي .. لقد طعنني السلطان فيها من الخلف .. لم يشأ قتلي ..

قال لي السلطان الخائن في ضيق شديد بينما الحراس يتمكنون مني :

- بعد كل تلك السنوات لازلت بنفس رعونة الأطفال ؟ لازلت تريد القفز والضرب ؟ غبي لا يدري شيئاً عن الواقع ولا الدنيا !

كنت أشعر بحالة من القهر ! لماذا لم أنجح كالسابق ؟ الآن وقعت بتصرف أحمق أسيراً في قبضة هؤلاء !

أمر السلطان (سعيد) بأخذي الى سجن أحد القلاع .. أثناء رحيلي قال لي بلهجة آسفة :

-كنت أعتبرك صديقاً .. لكنك خنتني .. سأدعك حتى تتعفن في هذه القلعة !

هتفت بينما الحرس يجرونني الى الخارج بقسوة :

- بل خنت أنت أمتك يا من أمن في عهدك الصليبيين بتنصير شرق أفريقيا المسلم .. والله لتكونن نهايتك هنا عبرة يا خائن !

لم أكمل الكلمة الأخيرة لأن ضربة قاسية جائتني فأظلمت الدنيا على اثرها ..

***

تمر الشهور في قلعة زنجبار .. هل هي شهور أم سنوات ؟

حبس انفرادي .. في زنزانة حقيرة .. مقيد بالسلاسل دائماً !

لقد تعلم .. حكيت له بكل أسف القصة القديمة لهروبي من القلعة فأجاد التعلم !

اللعين ! المجرم ! الخائن !

لم أتوقع أن تصل الخيانة لهذه الدرجة ! الى درجة السماح بتنصير الناس !

كيف يعد مثل هذا الآن في عداد المسلمين ؟ انه خائن لله ورسوله ! هل يثور عليه الشيوخ والعلماء ؟ هل تثور عليه شرق افريقيا كلها عندما تكتشف الكارثة ؟

والإنجليز .. كيف كان الملعون يعتبرهم مجرد قوم باحثين عن التجارة والمطامع الدنيوية فقط ؟ ها هم يفصحون عن وجههم الصليبي العفن فيجدون من حكامنا من يمهد لهم الطريق ! عجز البرتغاليون عن التنصير بالمدفع فاتخذ الانجليز مدافع المسلمين وحكامهم أنفسهم مطية للتنصير !

اللعنة عليك يا (سعيد) .. اللعنة على كل خائن لهذه الأمة .. والله لو لم تثر عليه غضباً لله ليكونن العقاب مرير ! لتكونن النهاية سوداء !

وسط هذا لابد أن تعترف لنفسك :

من داخلك تشعر بالفخر !

فقدت أولادك وزوجتك ! فقدت تجارتك وزراعتك ! فقدت دنيتك كلها تقريباً .. لكن ها أنت تشعر بأنك غضبت من أجل الله وضحيت بنفسك من أجل دينه ..

فلينته اذن هذا الشعور القذر بخبث نفسك !

نعم .. أشعر الآن أن خير علاج للنفس هو الجهاد في سبيل الله وقول كلمة الحق ، الآن فقط أشعر أنني حر من قاذورات نفسي !

الآن فقط أشعر أنني حر عندما قلت الحق !

لهذه السلاسل المريرة طعم .. لهذه الزنزانة الكئيبة طعم .. لفقدان الطعام الفاخر في سبيل الله طعم ..

فلأتذوقه سعيداً .. ولتذهب الدنيا المملة الى الجحيم ..

فأنا لم أنتم لها يوماً !

***

سنوات .. أيام .. لا أدري ..

طال الأمد ..

عالجني المجرم في زنزانتي حتى عدت كما كنت دون أن أعرف السبب .. قال لي الطبيب يوماً أنه يريد موتي عجوزاً نادماً على فناء صحتي الكاملة في السجن .. لا أموت سريعاً إثر فساد الجرح !

لكن السنوات تمر مع ذلك ..

بدأت أشعر بالوهن .. بدأت أتسائل وأراجع .. هل كنت على حق ؟

نعم كنت على حق بالتأكيد ..

لكن هل كان من الضروري أن أدمر حياتي هكذا ؟
من أنا في زنجبار ؟
ها هم اهل شرق افريقيا وزنجبار لا يثورون .. الحراس وأحاديثهم تؤكد زيادة الرخاء والسعادة عاماً وراء عام !
هل كنت مخطئاً ؟ هل كنت غير قادر على فهم ديني ؟ هل لن تقع عقوبة بهذا الظالم و آله ؟ هل أنا مجرد متعصب مجنون آخر والسلطان (سعيد) هو الرجل الحق ؟
في العام الأول كانت الاجابة قاطعة .. لا .. أنت على حق ..
لكن السجن الطويل بدأ يجعلني أجادل و أهتز ..
بدأت أشعر بالملل .. أين الموت ؟ لماذا لا يقتلونني ؟
لقد أصبحت أندم كل ساعة بأني لم أسع للموت شهيداً وقت ثورتي .. الموت نفسه أفضل من شهر واحد في السجن ..
هل هذا هو السبب الذي جعل الله لا يجعل في عقوباته كلها أي سجن ؟
يا لحكمتك يا ربي .. و يا لحماقة الآخرين الذين أدخلوا السجن كعقوبة في دين الاسلام !
لابد أن أعترف بأن هناك شئ مرير يحدث بداخلي .. أنا غير قادر على ايقافه ..
شيء من عدم اليقين في أي شيء يتسرب ولا حيلة لي فيه ..
أتذكر وجه (مهدية) الآن ، أتذكر آخر لقاء عاصف بيننا .. أتذكر وجه أولادي .. لماذا فعلت هذا في نفسك يا أحمق ؟
المزارع ورائحة القرنفل والزهور والفاكهة والبحر والقرود والمياه العذبة والحياة الهانئة !
لماذا ضيعت كل هذا ؟ هل كان الأمر يستحق ؟
بلي يستحق طبعاً ..
لكن ..
هل كان الأمر يستحق ؟

مُهيب

١

أن تقضي طفولتك ثم شبابك دون أب .. هذا أمر مرير ..
وأن تعرف أن هذا الأب مسجون معك في نفس الجزيرة .. فهذا أكثر مرارة ..
أما الشئ الذي لا يطاق .. أما الشئ الذي يحيل الحياة جحيماً .. هو عدم معرفة ما اذا كنت سترى والدك المسجون قبل موته أم لا ..
لا أمل وفي نفس الوقت هناك أمل !

***

كان جدي (أمين) يحكي لي بصورة مستمرة عن والدي البطل .. بين دفتي كتاب أفكاره المقدس عشت أجمل لحظات و أصعبها .. قضيت سنوات طفولتي بين آلام اليتم وبين آمال الفرج القريب .. تعودت منذ العاشرة أن أذهب بالقرب من القلعة المسجون فيها والدي .. أتحرك أسفلها جيئة وذهاباً لعدة ساعات .. انه بالأعلى .. والدي البطل بالأعلى .. أرفع رأسي فأتأمل النوافذ الصغيرة للقلعة الشاهقة .. من إحداهن لابد أن أبي يطل على الدنيا من أعلى غير قادر على رؤيتي .. متى أراه ؟
هكذا بدأت أتعود على الذهاب يومياً الى هناك دون علم أهلي .. مع السنوات تحولت الساعات الى دقائق لكنها أصبحت كذلك طقس يومي لا يتبدل ولا يتوقف ..
في الصباح أساعد جدي على رعاية الأرض ومحاولة فهم تعقيدات زراعتها بينما انشغل أخي الكبير (محمد) بتجارة والدي السجين ..
و قبل الغروب أستمع من جدي لأحدى حكايات والدي بطل العرب الذي هز عُمان وهز سلطانها ولم يسجن الا بعدما ثار عليه لأجل زنجبار .. أراجع كتابه المحفور بداخلي .. ثم

أتحرك في المساء إلى القلعة .. في قلب الظلام أتوقف متأملاً نوافذ السجن وعلى وجهي ابتسامة أمل وفخر .. كم أنا فخور بك يا والدي .. كم أنا فخور بك أيها البطل العظيم ..

***

بداية من العاشرة بدأ جدي في تلقيني تعاليم والدي ومفاهيمه .. علمني أن مفتاح الفهم مدفون في الكتب .. وعلى أن أكرس حياتي في البحث عنه .. هكذا كنت أقرأ وأقرأ .. أستمع لمفاهيم والدي البطل التي تعلمها جدي وأقرأ ما ينمي هذا الفهم أكثر وأكثر ..

هكذا أصبحت عدواً للسلطان ألعوبة الانجليز .. عدواً للانجليز أعداء ديني .. راغباً في أن أكون بطلاً مثل والدي العملاق .. الرمز الكبير ..

متى أراك يا والدي ؟ متى تخرج لتعطيني الختم النهائي بالموافقة على انضمامي لركبك .. ركب الأبطال ..

متى تخرج يا والدي ؟

***

عندما أتممت الواحدة والعشرين في عام ١٨٥٦ لاح لنا الأمل بمفاجأة لم تكن على بال ..

لقد مات السلطان (سعيد) وهو عائد الى زنجبار من رحلة له في عاصمته الثانية (مسقط) ..

مات على سفينة اسمها (فيكتوريا) أهدتها له انجلترا بطاقمها البريطاني .. ويالها من خاتمة تثير التأمل والعِبر ..

برغم الحزن واليأس الذي انتاب كافة أبناء الجزيرة ، الا أن أسرتنا شعرت بدفقة هائلة من السعادة تغمرنا ..

هناك أمل الآن أن يخرج والدي .. هناك أمل الآن أن ينتهي سجن البطل ..

كان السيد (ماجد بن سعيد) ابنه قد تولى حكم الجزيرة نائباً حتى عودة والده ، فلما مات في الطريق قام بتنصيب نفسه حاكماً رسمياً للجزيرة وهو لازال في الثانية والعشرين .. لكنه كان قوي الشخصية فيه حكمة ولين طباع وأقل أبناء السيد (سعيد) غروراً ..

هكذا بعدما مرت فترة الحداد في الجزيرة ، وبعدما بدأت الحياة تعود الى طبيعتها مرة أخرى ، تشجع جدي (أمين) وذهب بي وبأخي (محمد) لنطلب من السلطان الجديد الافراج عن أبي المسجون ظلماً ..

قابلنا السيد (ماجد) بوجه هاش باش .. فقد كان على معرفة بأخي (محمد) بالذات بسبب علاقات تجارية سابقة .. وما ان بدأنا في الحديث عن والدي ومحنته حتى هز رأسه في هدوء مبتسم وقال لنا أنه يعلم جزءاً من محنة والدنا .. و لهذا سيقوم بالافراج الفوري عنه بشرط أن لا يتحدث بالسوء عن السلطان الراحل ..

شعرنا بسعادة غامرة لا توصف .. وقفت أنا و (محمد) في ذهول ورحنا نشكره بشدة بينما جدنا ذهب له وانحنى يقبل رأسه ويدعوا له ..

طلب السيد (ماجد) من أحد حراسه مرافقتنا الى القلعة للافراج عن أبي .. خرجنا معه وقد أصابتنا حالة من الصمت كأن على رؤسنا الطير .. هل من المعقول أن يكون الأمر بهذا اليسر ؟ هل من المعقول أن تكون أمنية حياتي أن أشاهد والدي متوقفة بكلمة ينطقها حاكم ؟ وماذا لو كان مزاجه متعكراً ؟ ألم يكن ليرفض الافراج عنه لعشرات السنوات مرة أخرى ؟!

يا الله ! يا ويل الحكام الظالمين ! يا ويل كل من يزج بأحد في السجن متناسياً أن وراءه أسرة ستتمزق قلوبها عليه ! أشهدك يا ربي أن سأختصم (سعيد بن سلطان) يوم القيامة على هذا ولن أسامحه ..

وصلنا الى القلعة وأُمرنا بالانتظار على بوابتها ..

مرت ساعة كاملة ونحن على هذا الحال .. أتبادل النظرات مع أخي (محمد) في قلق ورهبة دون حديث ، بينما جدي (أمين) واقف في مكانه ينظر الى الأرض شارداً ..

ألآن البوابات تفتح مرة أخرى .. انتبهنا وتحفزت أعصابنا حتى كادت تصرخ انفعالاً .. يخرج الحارس أولاً في هدوء ..

ثم يخرج رجل عجوز نحيل للغاية ذو لحية بيضاء يغطي عينيه من ضوء الشمس ..

وجدت جدي يهرع اليه هاتفاً في سعادة : أخي (راكان) .. أخي (راكان) !
أهذا والدي ؟
توقفت للحظات ثابتاً في مكاني لا أقوى على الحراك .. هرع (محمد) أخي هو الآخر بعدما فك نفسه من الجمود الذاهل .. كان والدي يحتضن (أمين) في دهشة ويستقبل (محمد) في حضنه بنظرات مستفسرة !
ظللت متجمداً مكاني أراقب المشهد .. لطالما تصورت والدي أكثر قوة .. لطالما تصورته أكثر شباباً .. ان الصورة التي كانوا يصفونها لي في صغري ظلت ثابته في عقلي حتى تحولت الى يقين لا يتغير ! لم أنتبه الى أنه ظل سجيناً ما يقارب العشرين عاماً !
أشعر بالغرابة من هذا العجوز وأشعر بذهول من موقفي الجامد !
كان (محمد) يعرفه بنفسه ، وبدأ والدي يفهم ويبتسم وان كان الذهول لم يفارقه ! بالتأكيد الصدمة كانت قوية وكبيرة ..
نظر نحوي في تساؤل .. شعرت بزلزال في داخلي !
هذا العجوز هو والدك البطل يا (مهيب) .. هذا العجوز هو الرمز الذي عشت تحلم برؤيته .. هذه العين الذابلة كانت يوماً في مثل شبابك وصحتك وعافيتك .. لماذا تُنكر منظره ؟ انه والدك فتحرك يا مخبول !
قلت وصوتي يتحشرج : أبي ! أنا (مهيب) يا أبي .. ابنك الأصغر ..
وجدته يقول في سعادة : ابني (مهيب) ! يا الله ! هل قضيت سنوات بهذا الطول بعداً عنك !
فتح ذراعيه ليستقبلني فاندفعت وقد هزني جلال الموقف .. للمرة الأولى يحتضنني أحد !
حتى جدي لم يفعلها !
حتى أمي لم تفعلها ! كانت دائماً جادة حازمة تعوض غياب أبي بالقيام بدوره مناصفة مع جدي !
لكني الآن أشعر بأمان هائل .. أمان مذهل ..

قد أضحى رمزك حراً مرة أخرى يا مهيب .. قد أضحى حراً مرة أخرى ..
فاهنأ بالاً ..
القادم هو الجزء السعيد في حياتك ..

٢

الشيخ مشغول عنا بالصمت والتأمل !
يبتسم لنا لكنه قليل الكلام ..
و ان تكلم كانت ردوده مقتضبه باسمة محايدة لا تضر ولا تنفع ..
يربت جدي (أمين) على كتفي قائلاً ان المحنة كانت شديد .. فلنصبر حتى يعود لنا كما كان ..
هل سيعود حقاً كما كان ؟ أعترف أن جدي ملامحه وجسده أكثر صبا من أبي .. بل انه يبدو كأنما هو في نفس عمره أو أقل !
هل كان مثلما تخيلته فعلاً ؟ اذن لماذا هذا الصمت المحايد ؟ أحكي له عشرات الأمور في سعادة وأعيد على مسامعه تعاليم الولاء والبراء و ما خطه في كتابه الذي تركه لنا كتعاليم مقدسة فأجده يستمع لي هادئاً ثم يهز رأسه بلا معنى واضح !
ماذا حدث ؟ هل نسي الكتب ؟ هل نسي المبادئ التي قاتل من أجلها ؟ حتى كتابه لم يبد إهتماماً أو تأثراً برؤيته !
حين تحدثنا عن السلطان (سعيد) ووفاته كانت لهجتي كلها مقت وشماتة ، توقعت نظرة مغضبة كارهة لهذا الخائن ، لكني فوجئت بوالدي يشرد بعيداً عني وهو يقول بلهجة فيها بعض التعاطف : رحم الله الرجل .. أفضى الى ما قدم !
ماذا هناك ؟
من هذا ؟

أين الثورة ؟ أين التبروء من السلطان الخائن ؟
أين البطل العربي ؟
أين أبي ؟

***

لماذا لم تعد رائحة زهور القرنفل عطرة كما كانت ؟!

***

لم أعد وحدي !
سمعت اليوم بالصدفة أمي تشتكي لجدي من أفعال والدي معها ..
وهي تتلخص في أمر واحد : إنه لا شئ !
نعم .. والدي هو رجل غريب بالكامل عنها .. كان حديثاً منفعلاً بينها وبين جدي .. تخليت للمرة الأولى عن مبادئي وظللت واقفاً أنصت لهذا الحوار دون علمهما ..
الخلاصة أن والدتي تكرر نفس ما أفكر فيه لكن بصورة أخرى : من هذا الرجل ؟
اذن هي الأخرى لا تعرفه ! هي التي عاشرته قديماً لا تجد في هذا العجوز الصامت المتأمل رجلها القديم !
كان جدي منفعلاً .. راح يتهمها بالغباء ويؤكد أن زوجها مر بما لا يطيقه بشر .. سجن وحده طوال عشرون عاماً .. فكيف تظن أنها ستجد نفس الشخص !
- وما العمل ؟
أن تصبري .. أن تتعودي على هذا الرجل الجديد .. هو زوجك القديم وواجبك أن تعيشي معه وتتحمليه ..
فارقت مجلسي وذهبت الى خارج المنزل ..
كان أخي (محمد) في المزرعة يتحدث مع بعض العبيد في شئون المنزل .. قاطعتهم وذهبت أبلغه بمشاعري !
كان (محمد) هادئاً كعادته :

- وماذا كنت تعتقد يا بني ؟ أبانا ظل في السجن لسنوات طوال ! لو وجدته يتحرك في نشاط وهمة ويتحدث بأريحية لشككت في أنه كان مسجوناً أصلاً !

- لكن .. لماذا لا يتفاعل معي ؟ أحكي له عن مبادئي التي تعلمناها فأجد بسمة فاترة ! أتنكر هذا يا (محمد) ؟

نظر (محمد) الي في جدية :

- (مهيب) .. والدك قد عاد .. افرح بعودته واحتفل ولا تعد لمثل هذا الحديث الآن !

ثم أشاح بيده في ضيق :

- دائماً أنت متعجل وحماستك تقودك لأحكام السفهاء برغم سعة علمك ! والدك لم تره طوال حياتك ومع ذلك منذ عاد وروحك قلقة بلا سبب مفهوم !

- بل هو مفهوم .. مفهوم جداً .. لكنك لن تفهمني للأسف !

***

أرقٌ علـــى أرقٍ ومثلي يأرق .. وجــوىً يزيد وعبرة تترقــرق

***

بعد أسابيع من عودته وصمته بدأ يتحدث أبي ..

وما أغرب ما تحدث به !

***

بدأ كل شئ في احدى المرات التي كنت أحكي له عن خطورة أفعال (ماجد) الذي يسير على خطا والده في القرب من الانجليز ..

غابت الابتسامة عن وجه والدي وهو يستمع ، نظر لـ (محمد) بسرعة ثم قال لي في حزم :

- الفتى لازال في بداية الدرب .. واجبنا أن ندعمه كما دعمنا وأفرج الكربة عني وعنكم ..

شعرت بذهول ، هذه هي المرة الأولى التي يتبادل فيها الحديث معي بصورة متفاعلة ..

- يا أبي .. لكنه يوالي المجرمين الكفار .. لن أعينه في هذا ولا في غير هذا ..
بنفس الضيق تابع :
- ليست موالاة .. انما الشاب ورث من أبيه مملكة كبيرة مستقرة .. انه مجرد تحالف بين قوتين كبيرتين .. ولسنا مأمورين بمعاداة كافة خلق الله ..
- لكن .. لكن يا أبي الأمر ليس بهذا السهولة .. ان الانجليز يغتصبون بلاداً إسلامية عديدة .. كيف بالله عليك أقبل التحالف معهم وهم أعداء المسلمين ..
- ما داموا لم يقوموا بالاعتداء على مسلمي بلدك بل سعوا في رخائها فلا ضير على حاكمنا إن تعاون معهم لما فيه خير المسلمين .
ارتج علي ! هل أكلم والدي حقاً ؟
التفتُ الى (محمد) أنشد النجاة فوجدته قد اطرق برأسه صامتاً معلناً الحياد !
لا .. ليس هذا ما تربينا عليه !
- يا أبي .. انهم يقومون منذ عهد السلطان (سعيد) بتنصير أجزاء كبيرة إفريقية من السلطنة وخارجها ويفتنون المسلمين عن دينهم .. فأي رخاء ذلك ؟
- المسلم الحق لن يفتن .. ليس عليك هداهم ..
- لكن واجب الحاكم المسلم أن يمنع فتنة الناس في عقيدتهم ..
- ومن أدراك أنه لم يفعل ؟ ومن أدراك أنه قصد تركهم يقومون بتنصير المسلمين ؟
انتثرت واقفاً .. قلت له متسائلاً في غضب :
- ولماذا سجنت اذن ؟ ألم تسجن لأنك أردت منع هذا ؟
- لو كنت مُخلصاً حقاً في غضبتي أيامها لذهبت أدعوا الناس لدين الله و أقابل فكر المُبشر بالقرآن والسنة والحجة والدليل .. لا أن أهين سلطان بلدي و أسعى لقتله !
من الذي صب الماء الساخن فوق رأسي ؟ انها توشك على الاحتراق !
- أبي ! أنت نادم على ما فعلت ؟
للمرة الأولى غضب قائلاً في عصبية :

- ضاع عمري .. ضاع عمري .. ما الذي كنت أفكر فيه عندما ضيعته ؟ ها هي زنجبار تعيش الرخاء لتُكذب توقعي بأنها ستنهار بسبب (سعيد بن سلطان) .. ها هي زنجبار تعيش الرخاء لتُكذب توقعي بأن من يتحالف مع الانجليز سيقومون بإهلاكه .. ها هو أبنه العفيف المؤدب بشهادة الجميع يقومِ باخراجي في لفتة لن أنساها له .. كيف تطلب مني أن لا أندم على اضاعة عُمري ؟

الهزة بداخلي تتلو الهزة .. أكاد أسقط .. أنا موشك على الانفجار .. من هذا ؟

نظر لي (محمد) في قلق عندما راقب صمتي الغاضب .. قبل أن يقف ليمسكني من كتفي ويقودني لخارج الغرفة قائلاً :

- أبي محتاج للنومِ الآن يا (مهيب) .. أستأذنك يا أبي للرحيل ..

خرجت من الغرفة متماسكاً في صمت ، قادني (محمد) حتى خرجنا من المنزل تماماً ..

هنا ..

انفجرت في البكاء ..

***

عمرت الدهر ملتمسا بجهدي .. أخا ثقة فألهاني التماسي

تنكّرت البلاد ومن عليها .. كأن أناسها ليسوا بناسي

***

٣

الأيام تمضي ..

حال الرجل لم يعد خافياً على أحد ..

ناقشناه عدة مرات تالية فتيقنا بأن هذا لم يعد أبي (راكان) الذي عرفناه ..

إنه مجرد شخص متهدم يشعر بالندم على ضياع عمره وحياته ..

ويلقي اللوم على مبادئه التي أضاعته !

هكذا توقفت عن النقاش .. كانت آخر مرة شديدة الحدة وبعدها أقسمت أن لا أجلس معه ثانية لأناقش مثل هذه المواضيع والمبادئ ..

حتى أخي (محمد) كف عن الاعتذار له ..

جابه غضبي بشرود قبل أن يقول في حسم :

- المبادئ و الأفكار ثابتة وهي حق .. الشخوص والنفوس تتغير وهي وهم .. فلنقدس الأفكار و لا نلتفت للأشخاص كيلا ننتكس !

- لكنه الرجل الذي علمنا كل هذا أساساً ؟ لقد أثبت هو بنفسه أن مبادئه أكذوبة ! لقد تركها بغير رجعة فلم نتمسك بها ؟

بحزم أشد يخفي ضيقاً ومرارة قال (محمد) :

- لا يعرف الحق بالرجال .. إنما يعرف الحق فيعرف الرجال .

- ومن أين أعرف أنه الحق ؟

هنا احمر وجه (محمد) وقال غاضباً :

- أيها الأحمق ! لقد درسنا كل تعاليمه التي نقلها لنا جدي و سطرها في كتابه ، وعرفنا أن كتب أهل الفقه والدين والقرآن الكريم شاهدة على صدق هذه التعاليم وهذه المبادئ ، انه لم يخترع لنا ديناً ننتكس معه ان انتكس هو ، إن ديننا ثابت وهو من تغير ..

- و ماذا عن رفضه للعبودية ؟ انه أيضاً جاء بالجديد !

- و هل الولاء لأهل الاسلام ومعاداة أهل الباطل جاء هو بها من عنده ؟ أتختزل كل تعاليم الإسلام في هذا ؟

- بل أقول أنه أيضاً ابتدع فكرة من عنده ، فلماذا لا ابتدع أنا أيضاً فكرة أخرى رافضة للولاء والبراء هذين !

نهض (محمد) غاضباً وهو يقول :

- تباً لك ! لن أكمل الحديث معك أيها المجنون ! لكن لا تنس أبداً أنه والدك !

في صرامة رددت عليه :

- إنه لم يكن يوماً والدي .. لقد كان رمزاً مُقدساً لا يأتيه الباطل ، وهو من هدم نفسه بنفسه !

****

ان هي الا أسابيع وجائنا الخبر الجديد ..

والدي سيتزوج !

امرأة أخرى ؟

ياللجنون !

الجنون حقاً فيمن سيتزوجها ، انها مطلقة مشهورة في المدينة بتسلطها و تصرفاتها الشرسة ..

امرأة اسمها (فاطمة بنت تيمور) !

****

البيت اشتعلت فيه النار ، وقفت أمي تتحدث بحدة في وجه أبي الجالس في صمت ، كان أخي (محمد) قد اطرق برأسه صامتاً كالمعتاد بينما جدي (أمين) جلس شارداً ينظر الى أبي في هدوء عجيب !

كانت أمي في حالة شديدة العصبية والغضب ، راحت تذكره بأنها انتظرته طوال سنوات كثيرة وفي النهاية يعاملها كالغريبة ، ثم بعد كل هذا يتزوج مرة أخرى .. الى آخر هذا الكلام العصبي المتوقع ..

وما ندري الا وهي تهتف في غضب مذكرة أبي بأنه ظل عاشقاً لفاطمة حتى عندما كانت متزوجة !

هنا نهض أبي في غضب و صفعها في ثورة ، بينما تلقفها جدي محاولاً فض الاشتباك !

تبادلت أنا و (محمد) نظرات الذهول !

ما هذا ؟!

كانت أمي الغاضبة تصر على أن ما تقوله حق ، كانت تقسم بأيمان الله كلهم أنهما كانا عاشقين حتى وكل منهما متزوج !

ياللجنون .. وقفت وأنا أشعر بقلبي ينقبض حتى أصبح في حجم حبة الرمال !

كان أبي قد بلغ الغضب منه مبلغ رهيب لم أتخيله ، راح يهددها بالطلاق ، بينما راح جدي يصرخ فيها طالباً التوقف عن الحديث !

فقط أنا و (محمد) ظللنا نراقب وكل منا فاغر فاه في ذهول !

الصنم الكاذب .. الوهم .. السراب .. اللعين عاشق الزوجات .. ترى ماذا فعلت أكثر من هذا أيها الآثم المنافق !

في وسط ملحمة الصراخ والدموع والألم نطقها السجين السابق .. الثائر الآثم .. طلق والدتي ..

***

هيَ الرّزِيّة إنْ ضَنّتْ بِمَا مَلَكَتْ

منها الجفونُ فما تسخو على أحدِ

***

فليسُد الجنون .. فلتتهدم أيها الصنم الكاذب .. فلتغرق أكثر من هذا في المستنقع بلا عودة .. فلتغرق بمبادئك بأفكارك الخادعة ..
والدتي لا تتوقف عن الحكايا .. عرفت منها الكثير عن علاقة أبي المشينة مع تلك المرأة اللعوب .. يبدو أنهما لم ينقطعا عن بعضهما حتى برغم الزواج .. تباً للصنم الكاذب ..
جدي انقطع عنا غاضباً من الجميع ، فليذهب بلا عودة هو الآخر فقد كان رسول الصنم الكذوب !
(محمد) انقطع عنا في غرفته ، يتأمل في ضيق وألم لكنه لا يتحدث ، ظللنا أياماً في المنزل لا علاقة لنا بالدنيا .. كنت أدور حول نفسي بصورة مستمرة .. كنت أبحث عن بقايا الصنم الموجودة بداخلي وأفتش عنها بنشاط وهمة ، كلما وجدت أحد تعاليمه هنا أو هناك قذفتها في آتون اللهب الضخم المشتعل .. والذي كانت أمي تقوم بتزويده بالفحم اللازم للاستمرار .
في النهاية وجدت (محمد) وقد خرج من عزلته ، استعد لمباشرة أعماله كأن لم يكن ..
استوقفته وسألته عن خطتنا للتعامل مع أبي ، في توجس من مقالبه المستمرة استفسرت منه عما اذا كان سيقاطعه مثلنا أم لا ..
في حزم أخفى به ضيقه المستمر قال :
- لن أقاطع أبي ! من حقه أن يتزوج بمن يشاء ..
رددت في ذهول :
- اللعنة على برودك ! بعد كل هذا لازلت تعبده ؟
- أنا لا أعبد غير الله .. و الحق ما أقوله .. قلت لك أني لا أزن الحق بأفعال الرجال .. ووالدي بشري له أخطاء وواجبي أن أغفرها له ..
- ماذا وراءك ؟ أخبرني ما الذي غيرك ؟ كنت حتى الأمس في ضيق وهم و غم ..
- تأكدت بان ما تحكيه والدتي وهم .. انها إمرأة غاضبة تشعر بالهجر والخيانة و الأحمق فقط هو من يصدق أحاديث امرأة عن زوجها في هذه الحالة ..

- من أين أتاك هذا اليقين الكاذب ؟
- من جدي نفسه ! لقد زرته وأكد لي أن أمي لا تقول الصدق وأن أبي لم يكن يعرف هذه المرأة الا في مراهقته لأيام قليلة .. اني أصدق جدي ..
- بعد ما فعله بنا جدك تصدقه ؟ اذا كان والدك نفسه تبرأ من تعاليمه التي نقلها لنا جدك المخرف !
دق (محمد) في عصبية شديدة على الحائط المجاور وهو يقول غاضباً :
- مهيب .. اني أحذرك .. اني أحذرك .. أقسم بالله لولا أنك أخي الصغير المحبوب ولولا أنني أقدر ما أنت فيه من صدمة لكان لي شأن آخر معك !
حاولت تمالك أعصابي ، قلت له بضيق :
- اذن تدافع عن الصنم ولن تتركه ! حسناً .. كما تشاء .. برر له و دافع عنه حتى الموت .. لكني أصدق أمي و لا أرغب في رؤيته مرة أخرى ..
- أنت وشأنك .. لكن حذاري من اختبار صبري كثيراً على اهانتك لأبي وأبيك .. اياك ثم اياك ..

***

تزوج الصنم المهدوم ب(فاطمة بنت تيمور) .. قام أخي عابد الصنم بحضور الزفاف برغم أن هذا كان شديد الخطورة لمشاعر أبناء الفاسقة فاطمة الملتهبة .. بالتأكيد أبناء هذه الفاسقة لم يتحملوا رؤية دليل خيانة أمهم وهم في هذه السن .. لكن (فاطمة) اللعينة كانت تملك الرجال والقوة والنفوذ .. كانت تدير أرض والدها بحنكة رهيبة طوال عمرها ولم تسمح لأحد أبداً بادارتها معها ، لم يشعر الأبناء بتغيير لأنهم كانوا يديرون التجارة مع والدهم ولم يكن لديهم رغبة بالعمل في الزراعة ..
هكذا استقر الصنم المهدوم في بيت زوجة تصرف عليه ! هل هناك أحقر من هذا في جزيرة زنجبار ؟

***

أفقت اليوم أكثر انتعاشاً ، وقفت في النافذة أنظر للبحر المتلاطم ..

إنني انسان جديد .. في هذا البحر غرق كل الماضي في ظروف معلومة ..

كل شئ انتهى يا (مهيب) .. كل الألم انتهى ..

هيا تحرك بمبادئ جديدة وأفكار جديدة ..

فليكن قدوتك هو الرجل الناجح الذي قاد (زنجبار) للنجاح والازدهار ..

الرجل الذي ثار صنمك القديم الفاشل عليه ..

من مبادئ (سعيد بن سلطان) فلتتعلم ..

فهو النجاح .. الثبات ..

و هو القدوة الحقة ..

****

إذا كان الغراب دليل قومٍ

يمرّ بهم على جيف الكلابِ

مُحمّد

١

كل بن آدم معرض للفتنة ، يقول رب العالمين (ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشِّر الصابرين) ..
ووالدي جرب الخوف والجوع وغياب الأموال والأبناء .. سُجن لحوالي عشرين عاماً ..
فهل هناك فتنة رهيبة أشد من هذا ؟
نعم والدي قد أصابته فتنة في السجن ..
لكنه سيبقى والدي .. وستبقى التعاليم التي نقلها الينا محفوفة بالجلال لا لشخصه انما لكمال منبعها : القرآن والسنة ..
فالمنبع كامل ثابت .. والنهر ناقص متقلب ..
البشري الناقل للتعاليم كهذا النهر ، والأحمق وحده هو من يربط ثباته بثبات النهر المتقلب ..
العاقل هو من يربط ثباته بثبات المنبع الصافي ..
لهذا أكرمني الله بالثبات في هذه المحنة التي مرت علينا ..

***

كانت هذه الأيام هي الأصعب في حياتي ..
أخي (مهيب) أصيب بضربة هائلة ولم يستطع الصمود في فتنته الخاصة ، فقد الإيمان بأبي وتعاليمه و بالتالي لم يعد يحترم أي شئ من الماضي ..
استقل بالأمور التجارية وساعدته والدتي في ذلك ، و أصبحت أدير تجارتي وحدي ..
في سرعة تقدمت لأحد المنازل وتزوجت من فتاة على خلق ودين ، ورحلت عن المنزل بعدما أصبحت كالغريب فيه ..

***

هل والدي بهذا السوء حقاً ؟

بعد زواجه من السيدة (فاطمة بنت تيمور) بدأ يرتاح لي تماماً بسبب موقفي المؤيد لرغبته والرافض لمقاطعته .. بدأنا نجلس معاً لفترات أطول ..

وفتح أبي الباب كي أدخل منه الى أعماقه .. كي تنتهي حيرتي ..

***

حكى لي والدي عن فاطمة وتعرفه عليها ، حكى لي عن انقاطعه عنها ، فسر لي سبب انتقاله لأرضها التي كان جزء كبير منها أرضه أصلاً لكنهم طردوه منها ظلماً ..

إذن أبي لا يعيش عالة على أحد !

أبي مظلوم في هذا الموضوع تماماً .. كل ما في الأمر أن حياته أفسدتها التقاليد البالية فحاول اصلاح الأمر والعقدة هذه بعد أن أصبحت المرأة التي أحبها يوماً حرة ..

في المساء أكد لي جدي كل كلام والدي .. كنت أشعر براحة هائلة تغمرني ، لكن كيف أقوم بتوصيل هذا الى أخي (مهيب) ؟ ألن يرفض كل حرف أنطق به ؟ إن أبي وجدي هما الصنمين الكاذبين عنده ولن يقبل حرفاً يدافعان به عن نفسيهما ..

لكني عدت لوالدي أستفهم عن سبب التغيير في موقفه تجاه سعيد بن سلطان ، هنا وجدت كلاماً آخر يتحدث به !

انه لم يغير موقفه تماماً كما فهمنا !!

- لكن يا أبي ! كلامك هذا غير السابق ؟!

تنهد أبي و أطال النظر من النافذة الى البحر دون تعليق .. عاد بوجهه وهو يقول في أسف :

- بعدما خرجت من السجن هناك أمور كثيرة مهزوزة يا (محمد) .. أنا غير قادر حتى الآن على تحديد رأي نهائي .. كنت في أزمة وقتها مع والدتك وكنت في أزمة مع نفسي .. الآن بعدما هدأت ثائرتي بالزواج من فاطمة واستقرار حياتي في الأرض التي قضيت شبابي فيها بدأت في مراجعة كاملة لكل شئ .. من الخطأ أن تطلب مني آراء وأنا في هذه الحيرة ..

- لكنك أنكرت تعاليمك يا أبي .. أنكرت كل شئ ..
- لقد كنت مستنكراً لحياتي كلها .. أنا في تيه منذ العشر سنوات الأخيرة من سجني يا بني .. هناك اضطراب نفسي هائل وأخوك (مهيب) لم يراع هذا على الإطلاق ! لقد كان مُصراً على الضغط بكامل قوته على الجرح و كان مُصراً على أن يثير نفسي الهائجة الحائرة !
السماء تنقشع منها الغيوم ، البلابل تشدو في أرجاء العقل لتطفئ بأنفاسها العطرة نار الحيرة و ترشد بصوتها العذب السفينة التائهة الى بر الأمان ..
بإبتسامة واسعة صافية غابت طويلاً عني قلت لأبي :
- الآن يا أبي هدأت حيرتي والعواصف بداخلي .. اللهم بارك لي فيك ..
قمت وانحنيت لأقبل يده فقبل رأسي ..
وأثناء انحنائي همس في أذني بلهجة حانية :
- أدع لي يا بني أن تهدأ حيرتي أنا الآخر !

***

هكذا تمضي الأيام في هدوء ، برغم الجراح التي لم تلتئم في منزل أمي ، والحيرة التي لا تنتهي في منزل أبي ، والغضب الثائر الذي يهدأ في نفس أخي ..
بدأت تجارتي تنمو ، وبدأت تجارة أخي تنافسني ، كنت في غاية السعادة بهذه المنافسة ، لكن حدث يوماً ما كدر سعادتي !

***

- لماذا تنشئ العلاقات مع الانجليز و (ماجد) ؟
رد (مهيب) في سخرية :
- لأنهم الحق .. أليس من واجبنا معاونتهم ؟
- كف عن المزاح و أخبرني ، لماذا تنحدر إلى هذا الطريق ؟ مهما كانت صدمتك يا (مهيب) فمن المستحيل أن تبيع كل شئ في خلال عام واحد !

- بل أنا لازلت أحب الصنم وأعبده ! أليس هو القائل بمعاونتهم و إمكانية التحالف معهم ؟! أنت الذي لا تطيع تعاليمه !

- إسمع ! أنا ليس لدي أصنام .. و محاولتك الطعن في والدك لكلام قاله و هو في زمن الحيرة أمر يُحسب عليك لا لك ، إنك تثبت أن الايمان للقضية لم يدخل قلبك يوماً ، أنت آمنت بوالدك .. وهو أسخف إيمان و أقله إخلاصاً !

نفخ (مهيب) في ضيق وقال بنفاد صبر :

- إسمع أنت ! موضوع والدك هذا انتهى وأنا سأقوم بما تمليه عليه مصلحتي وضميري .. لا تحدثني عن قيم وهمية وتعاليم أكل عليها الزمان وشرب ..

- إذن .. فأنت مصمم بالتعاون مع الإنجليز بلا عودة في القرار ..

- بل ومع الشيطان ذاته ، وليس لك شأن بما أفعله من الآن فصاعداً !

- ستندم يوماً يا (مهيب) .. أنت اخترت طريق أعداء الله مثل أسرة (سعيد) وستندمون جميعاً يوماً ما ..

- الندم كان على الماضي الذي اكتشفت أنه سراب !

لا ندم بعد اليوم ..

***

تمر السنوات ، يجيئني (وحيد) و (مهدية) و (خالد) .. بينما يتزوج (مهيب) ويُنجب (هشام) و (ثويني) و (ماجد) و (رقية) ..

تجارة (مهيب) أصبحت خرافية ، أصبح من السادة المقربين لماجد والإنجليز ، عبر البحر الى ممباسة و أصبح شاطئ شرق أفريقيا يتغنى بتجارة (مهيب) و كرمه ، بينما الانجليز يفتحون له كل الطرق والوسائل ..

تجارتي ظلت صغيرة لكنها جعلت حياتي تسير في خط هادئ و سعيد ..

يسألني أبي الذي عبر السبعين الآن عما اذا كنت نادماً على تعاليمه التي قيدتني و لم تجعل تجارتي تصل الى ما وصل إليه أخي ..

أبتسم في هدوء و أقول له :
- يا أبي .. تهون الدنيا و تجارتها وثرائها .. فلتذهب الى الجحيم إن واليت الكفار المحاربين لدين الله .. أيقول ربي (وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ) ثم أذهب اليهم طائعاً ؟
سُحقاً للدنيا و زخرفها ان كانت ستجعلني موالياً لهؤلاء ..
- لكنك ترى بعينيك يا حبيبي كيف أن أخيك والجزيرة كلها تنعم بالخير على يد الانجليز و أعوانهم ..
-(ونبلوكم بالشر والخير فتنة) .. هكذا قال ربي .. إن هذه الجزيرة مبتلاة بالخير .. وهو أشد فتنة من الشر ! إنهم يظنون أنهم يحسنون صنعاً و إنهم لمُفسدون ..
أطرق والدي برأسه قليلاً ، ثم رفع رأسه وهو مبتسم في إشراق :
- الحمد لله أن قر عيني برؤيتك يا (محمد) .. انك يا بني وصلت الى ما لم أصل اليه يوماً ..
- ما وصلت الى هذا إلا بفضل الله ثم إياك يا أبي .. فأدع لي بالثبات ..
- سأدعو لك يا بني .. سأدعو لك .. فالثبات نعمة أغبطك أنا نفسي عليها ..

راكان

١

أداعب السلاسل ، أنظر من النافذة الى السماء .. نفس المشهد الثابت طوال سنوات لا يعلمها إلا الله ..

متي تنتهي هذه الغمة ؟

ياللسجن .. ياللمرار .. ياللسجن ..

أين صاحبي يوسف يمدحونني عند الملك كي ينهي عذابي ؟

لقد سأمت .. أريد الموت الآن الآن ..

ياللمرار وياللعذاب ..

ياللسجن ..

***

أشاهد أحفادي يكبرون أمامي .. من بينهم كان (خالد) بن (محمد) هو الأقرب لي .. منذ طفولته بعث في نفسي السعادة بتعلقه المذهل بي ..

يميل على أذني (محمد) ابني .. يطلب مني هامساً راجياً أن أكون مُعلم (خالد) في هذه الحياة .. (وحيد) طفل يعشق اللهو ولا يستقر .. لكن (خالد) مُختلف .. خالد شديد الهدوء شديد الرزانة ، يبدو في العاشرة كأنه رجل عاقل هادئ ..

أستعيد الذكريات المريرة .. ماذا أورثتني هذه التعاليم القديمة غير المشقة يا بني ؟

لكن (محمد) يُصر ويرجوني ..

و أنا لن أُخيب ظن ابني الحبيب ..

لن أفعل أبداً ..

***

صغير السن صغير العقل .. (مُهيب) ابني الذي أصبح الآن واحداً من السادة المقربين من السلطان (ماجد) والإنجليز .. ابني الذي ضيعته أفكاري و تنازلي عنها ..
لكن ماذا كان بمقدوري أن أفعل يا بني ؟ أنت لم تخض العاصفة التي خضتها .. أنت لم تجرب مرارة السجن في الحلوق .. سجن طويل أبدي لا ينتهي .. لا موت ولا حياة .. كيف تطلب مني أن أظل متماسكاً بعد هذه الرحلة الطويلة في سرداب اليأس المظلم الملئ بصرخات الوحوش المخيفة ؟
حين خرجت كان لابد لي أن أُفكر طويلاً فيما حدث ، كان لابد أن أخاف و أرتعد من المفاجأة التي وجدتها برؤية ابني الأصغر نسخة أخرى أكثر تهوراً مني ، كنت أتأمله دون أن يدري فأجد في عينيه و كلامه (راكان) الذاهب الى السلطان مُصراً على مواجهته مهما كانت النتيجة .. راكان الشاب الأحمق المتسرع .. كنت أراه مُصفداً طوال أجمل وأحلى سنين عمره فينتفض قلبي جزعاً .. كان لابد أن يزيد تراجعي .. حاولت إقناعه بما لم أكن شديد الإقتناع به .. لكن لا جدوى .. فقدته الى الأبد .. زادت حيرتي وهمي ويأسي .. لم أستطع تحمل فقدان ابني الآخر العاقل المؤمن الرزين ..
لهذا أقوم الآن بتعليم (خالد) وحثه على القراءة و التفكير .. لا تتوقف عن التفكير يا (خالد) .. لا تتوقف أبداً ..

***

ها هي (فاطمة) التي أصبحت عجوز مثلي الآن تسير في المنزل بقوة وصحة تُحسد عليها ، لديها شخصية ثابتة الجنان قوية كما عودتني يوم عرضت علي الهرب و نحن صغار .. و لولا قوة شخصيتها ما تم زواجي بها بسبب الحرب التي قادها أبناء زوجها السابق ضدي وضدها ..
أي مجتمع ذلك الذي يقبل بأن تبقى المرأة المطلقة بلا زواج طوال ما تبقى من عمرها بينما زوجها ينعم بزوجات أخريات ؟ أي مُجتمع ذلك الذي يضع كافة العراقيل الممكنة أمام زواج كبار السن بحجة تجاوزهم حدود اللياقة والأدب ؟

بلى والله كنت أحتاجها .. و كنت أحبها .. و منذ تزوجتها عادت لروحي كثير من شبابها الضائع .. أعرف أن في نظرتها الكثير من الحكمة و في شخصيتها الكثير من الإختلاف .. بالفعل المرأة التي تزوجت سابقاً تفقد الكثير من حيويتها مع زوجها الجديد .. لكنها صنعت الكثير من أجل إسعادي .. أعطتني أرضي المسلوبة مني و قامت بمراعاة محنتي و رعايتي بكل الطرق و الوسائل .. (مهدية) زوجتي السابقة لم تفعل .. أو ربما فعلت وأنا ظلمتها ؟ لا أدري ! المهم أني كنت أشعر بأنها شخصية غريبة على نفسي منذ خرجت .. ولم يكد نبأ طلاق (فاطمة) الذي حدث منذ سبع سنوات قبل خروجي يصلني حتى ذهبت الى دارها أخطبها بلا تفكير ..

نعم معها شعرت بالحب .. لن أخجل أن أقول هذا .. و معها أعيش السنوات الأخيرة من عمري في راحة وهدوء ..

***

يتطور (خالد) يوماً وراء الآخر .. (وحيد) ينضم لوالده في تجارته .. بينما (خالد) يبدو منبهراً بالعلم والشريعة و الأفكار الجريئة .. برغم مظهره الرزين الهادئ لدرجة قاتلة يخفي هذا الفتى بداخل نفسه روحاً شديدة الهياج ..

أصبح صديقي وونيسي .. لم يعد بمقدوري العناية النشطة بالأرض وكذلك بدأت (فاطمة) الحبيبة تقلل من حركتها لألم حل بمفاصلها .. ببطء بدأ (خالد) يحوز على ثقتنا في إبلاغ الرسائل للفلاحين .. ياللأيام .. ها أنا أجلس الآن على مقعد أستاذي و أبي الراحل (ثويني البريكي) و الرجل الطيب السيد (تيمور) .. لم أعد أصدق أن السنوات مرت بهذه السرعة .. سرعة ؟!

وماذا عن السجن الطويل المرير ؟

لا لم تكن سريعة .. كانت بطيئة مملة رهيبة ..

لكن مع ذلك يزيد يوماً وراء الآخر الألم الممض والشعور بأن شبابي سُرق مني بسرعة .. حياتي تبدو مبتسرة كأنها بناء رائع مُزخرف و مع ذلك ينقصه أهم غرفة فيه ! كان هناك

الكثير من الأمال .. كان كل من يعرفني يتعامل معي على أنني سأكون فاتح للأمة .. الكل رأى في راكان شخص كبير بينما حياتي في الحقيقة كانت هي التفاهة و السقوط و الإحباط و الضياع ثم العجز و انتظار الموت في صمت !

الآن أرى في (خالد) شبابي ..

أرى فيه مبادئي التي في أعماق نفسي لم أعد بذات اليقين في صحتها ..

أرى فيه الحماس والعمل ..

وأخاف عليه مصير من يحمل بين جوانحه مثل تلك الأفكار ..

***

لم يفتني كذلك مراقبة كيف جرت الأمور في السلطنة ..

كيف أنه بعد وفاة (سعيد بن سلطان) ثارت مشكلة بين (ماجد بن سعيد) الوالي على زنجبار ، وأخيه (ثويني بن سعيد) والي مسقط و عُمان ..

هكذا حدث الصراع بين الإخوة وكل منهم رفض الإنضمام تحت حُكم الآخر .. هكذا لا أهمية للشعب والعقلاء و ليست السلطنة سوى ميراث يتقاسمونه ..

ومن كان العاقل الذي تدخل لتهدئة الصراع ؟

نعم .. إنهم الإنجليز !

لقد أصبحوا هم الطرف العاقل الرزين الخائف على مصلحة السلطنة !

وبعد سنوات من الجدال والمناوشات التي قاموا بتزكية نيرانها بين الأخوين قدموا اقتراحاً يُنهي الخلاف بصورة جذرية ..

قسموا السلطنة بين (ماجد) و (ثويني) !

هكذا دائماً كان اقتراح إنجلترا التوسعية دائماً : التقسيم والتجزئة !

أخبرني بعض من درسوا القوم و رافقوهم أنهم يؤمنون بمبدأ (فرق .. تسد) !

و هل هناك تفرقة أكبر من فصل امبراطورية عربية ضخمة الى جزأين باستغلال خلاف أخوي لعبوا فيه دور الوساطة في الصلح حتى أنهوا العلاقة بينهما للأبد ؟!

هذا وفاء أصدقائك يا (سعيد) .. هذا ميراثك لأبنائك ..

***

لكنها لم تكن النهاية !

(ماجد) قام بصراع مع أخيه (برغش) في زنجبار على من هو الأحق بالحُكم ..

وكان الإنجليز هم الوسطاء كالمعتاد !

فماذا كانت النتيجة ؟

قام ماجد بالإستعانة بهم لقصف منزل أخيه (برغش) بالسفن البريطانية ونفيه الى (مومباي) !

الإنجليز .. الوسيط الأمين الذي فرق بين الإخوة وقسم الإمبراطورية ..

الآن أصبحا هم الشريك الفعلي في الحكم مع (ماجد) ..

و ما ان توفي (ماجد) حتى قام الإنجليز بمساعدة (برغش) على تنصيب نفسه سلطاناً لزنجبار يدين لهم بالفضل و الولاء ..

هكذا عادت لي أفكاري كلها مرة أخرى بعدما أثبتت الأيام صحتها ..

ضباب الشعور بالذُل و العبودية أصبح يخيم على كل عاقل هنا في زنجبار ..

لكن يا للأسف .. ابني (مهيب) لم يكن منهم !

كان يندفع في خدمة الإنجليز يوماً وراء الآخر بلا حساب ..

عزائي الوحيد في (خالد) الذي يراقب كل ما يحدث بعين الصقر ..

ويوماً ما ظهر السؤال الذي خشيته لسنوات طويلة ..

***

- ماذا نفعل يا جدي ؟ أنعرف الحق ثم نكتمه ؟ كيف نواجه هؤلاء ؟

-علينا البلاغ و نشر الفكر ..

- لكن هذه حيلة اليائس العاجز .. أنا شاب يا جدي وبمقدوري مع بعض الشباب الآخر بعمل محاولة لخلع (برغش) حليف الإنجليز ..

- وهل تظن (برغش) وحده هو الحليف يا بني ؟ ان المجتمع كله يعيش في كنفهم ولا يدري خطرهم ! ألا ترى عمك وأمثاله من الأثرياء لا غنى لهم عن الإنجليز ؟ ألا ترى جيش سلطانك لا يستطيع العمل دون مشورتهم ؟

إنهم أكبر وأعظم من (برغش) .. تغلغلوا في نفوس المجتمع والسلطنة و أصبح من المستحيل الخلاص منهم ..

- هل أيأس يا جدي ؟ لماذا تدفعني الى هاوية الاستسلام ؟

- لا تندفع نحوها يا (خالد) .. فقط آمن بأفكارك و انتظر الوقت المناسب للعمل بها .. حاول نشرها وتوريثها لأبنائك و اسأل الله الثبات على الحق ..

ظل (خالد) ينظر لي في هدوء ، بداخله ثورة لكنه قادر بصورة إعجازية على كتم ما في نفسه ..

- يا جدي .. أرغب في الكثير والكثير لكني سأعمل بنصيحتك .. ماذا ترى أن أفعل الآن ؟

- تزوج يا خالد .. هات لنا المزيد والمزيد من النسل الذي يحمل راية هذه المفاهيم .. سنحتاج لهم يوماً ما .. أريد يوم تثور هذه البلد على الإنجليز وحلفائهم أن يكون بين الثائرين نسلي .. حقق لي هذه الأمنية يا (خالد) ..

- بين جوانحي أمل أعظم يا جدي ..

٢

إنه زمن الغروب يا (راكان) ..
تشعر بهذا في عظامك .. تشعر بهذا في لحمك .. تشعر بهذا في كيانك كله ..
إنه الغروب ..
ويالها من حياة عجيبة مبتسرة ..

***

رحل (أمين) .. ثم رحلت وراءه بزمن وجيز (مهدية) ..
زلزال هز كياني.. هل حقيقي أن العمر في غروب ؟
ماذا فعلت في حياتي ؟ ماذا أنجزت ؟ كيف مر الزمن بهذه السرعة ؟
الآن هناك أجيال نشأت على مبادئ لا سبيل لتطبيقها في أرض الواقع .. هل أنا المسئول عن هذه الكارثة ؟ هل هي كارثة فعلاً أم شئ يستحق الفخر كما يؤمن ابني (محمد) ؟
إن (خالد) حفيدي يعتبر هذا هو أهم ما يُميز أسرتنا .. لكني لست بهذا التفاؤل و لا الفخر !
ألم تتسبب هذه المبادئ في ضياع ابني الأصغر ؟
ألم تتسبب في ألم و حيرة بداخلي لم تخفت برغم أنني عبرت الآن حاجز الثمانين ؟
لست بهذا الفخر للأسف ..
ولا .. لا أشعر بالراحة ..

***

(أمين) و (مهدية) ذكراني بالنهاية .. ويالها من تذكرة مؤلمة سببت لي إرتباكاً كبيراً .. أما القاصمة فكانت وفاة (فاطمة) !
إنهم يتركونني .. إنهم يرحلون ..

لم أعد أستطيع الكف عن البكاء في هذه الفترة .. أحفادي وأبناء أحفادي ينظرون لي في دهشة .. (خالد) نفسه لم يفهم سبب سقوطي المدوي في هذه الحالة .. يحدثني محاولاً مواساتي ولكن الحيرة تبدو وراء كلامه :

- جدي .. علمتني الإيمان .. فإثبت يا جدي .. منك أستمد الثبات !

إنه لا يفهم ما أمر به .. إنها النهاية يا بني .. أخافها و أخاف تأخرها في نفس الوقت .. (محمد) يزداد تقدماً في العمر هو الآخر .. إنه يسير في الطرقات بصعوبة لمرض غريب داهم ساقه .. إن وجهه يزداد يوماً وراء الآخر قرباً من جده (أمين) ..

هل سيرحل الجميع و يتركوني ؟

ذاكرتي ضعيفة ولم أعد أتذكر الماضي الموغل في القدم .. لكن (ثويني) و (سعيد) و (تيمور) و العشرات من الوجوه الغائبة كانت تزورني لمواساتي .. برغم هذا لم يفلح أي منهم في اخفاء الحقيقة الجلية .. حقيقة أنه لم يعد متبق من الزمن القديم أحد .. أنا الآن غريب وسط أغراب !

وفي وسط هذه الغُربة .. تذكرت القبطان (برغش) الثرثار !

كم تمنيت أن أراه و أتحدث معه الآن بالذات ! (برغش) الذي كان عجوزاً حين كنت أنا في بداية الشباب !

هكذا تسلطت تلك الفكرة الغريبة علي لأيام حتى بدأت في الضحك على نكت لم يقلها أو أستغرق مُفكراً في حكاياته عن بطولات القواسم و جنونهم !

ترى هل لازال حياً ؟

***

لكن الزمن يمر .. لا أموت .. مع الوقت أنسى حزني على الأحباب و أنتظر لقاء قريب يجمعني بهم .. و ها أنا أعبر حاجز التسعين بسنوات ..

***

الوحدة صعبة .. أمضي الأيام الأخيرة في منزلي مع بعض الخدم الشباب المشغولين بأنفسهم وبرعاية منزلي .. أحمد الله على أنه برغم بنياني غير القوي إلا أن صحتي عامة جيدة جداً حتى بالنسبة لبعض الشباب .. لكن هاهو (محمد) مشغول دائماً و مرضه يزيد من انعزاله و (خالد) هو الآخر بدأ ينشغل بحياته و بتربية أولاده الصغار .. الكل يبتعد عنك رغماً عنه .. لم تعد لديك القدرة على الحكي والتذكر أو إضافة تعاليم جديدة .. والآخرين لم يعد أي منهم محتاج لما تقوم به أو تقوله !

و (مهيب) يزداد تألقاً .. ينتهي السلطان (برغش) و ينتهي السلاطين الذين يجيئون بعده و (مهيب) يزداد قوة و تسلطاً .. لقد علم القوة الحقيقية هنا و تحالف معها بلا إنفصام .. هكذا يوماً وراء الآخر تزداد قبضة الإنجليز في (زنجبار) حتى أصبح السلطان نفسه ممنوع تعيينه إلا بعد الحصول على موافقة القنصل البريطاني !

لن أنسى اليوم الذي تم توقيع هذه الإتفاقية و كيف بكى (خالد) من القهر .. هاهم سلاطين زنجبار المسلمين يوقعون على شهادة وفاتهم رسمياً ! لقد كانت إنجلترا قاسية لا ترحم ! الكثير من العقلاء أصيبوا بانتكاسة أيامها .. الكثير بدأ يفيق و يلعن (سعيد) على تحالفه مع ثعالب وذئاب كالإنجليز .. (محمد) حدثني مبتسماً في فخر عن توقعي بهلاك أسرة سعيد وضياع زنجبار بسبب تحالفه مع الإنجليز .. نظرت له في ضيق دون أن أعلق .. ياله من نبؤة يتشائم المرء إن صحَّت !

بدأت في القلق لهذا العمر الممتد حتى اقترب من القرن .. إن كنت سأموت فلا أريد أن أنتهي مجرد عجوز سفيه لا يتحكم في بوله ولا يتذكر اسم إبنه ! صحتي عجيبة بالنسبة لسني لكني لا أنفك أفكر في هذا الوقت العصيب الذي سأمر به وقت يبدأ التدهور السريع الذي أعرفه جيداً ..

نظرت لوجه إبني (محمد) و حفيدي (خالد) الفخورين ..

و سألت نفسي : هل سيتبقى بداخلهم أي فخر عندما أبول على نفسي ؟ طردت تلك الأفكار من عقلي و طلبت من الله مخلصاً أن لا أمر بيوم كهذا ..

***

الأجواء مُلبدة .. إنها منتصف التسعينات .. الحياة تغيرت تماماً هنا في (زنجبار) تحت قيادة السُلطان (حمد بن ثويني) .. الرجل فعل ما بوسعه كي يُثبت للإنجليز أنه رجلهم الأفضل في الجزيرة ! هكذا أصبح القنصل كالرجل المُمسك بالعصا لتأديب عبده إن أخطأ !
الإزدهار يقل .. هناك قناة شقها المصريون في أرضهم قللت من توافد السفن على زنجبار .. هكذا يقل الخير يوماً وراء الآخر ..
(خالد) أصبح هو كل حياتي الآن .. حفيدي الحبيب العامل بالتجارة شاعراً بيأس كبير بداخله .. الآن أصبح يجيئني حفيدي (ماجد بن مهيب) معه !
أخيراً رأيت شخصاً من عائلتك يا (مهيب) ؟ كم أشتاق لرؤيتك يا ابني .. برغم كل أفعالك أشتاق لرؤيتك ولو للحظة واحدة ..
(ماجد) مُتنقع بأفكار (خالد) .. أبوه (مهيب) كان يحب (خالد) برغم أنه يراه مجرد مغفل آخر .. لكنه كان يحبه حقاً .. ولكم سبب هذا من مشاعر مضطربة لدي (خالد) ! لقد كان يتمنى أن يكون عمه وغداً زنديقاً كي يكرهه ، لكنه وجده خفيف الدم والروح يحبه بشدة برغم خلافه مع أبيه !
هكذا سمح (مهيب) لإبنه أن يزورني .. و هكذا وقعت في حب (ماجد) للشبه الكبير بينه وبين أبيه .. تمنيت لو رآني و رأيته في سن أصغر لأُصلح ما أفسدته مع والده ..
أحمد الله على أن عافاني من السقم الشديد .. لازال بمقدوري المشي و متابعة حوار أحفادي الذي لا ينتهي عن كيفية التحرر النهائي من الإنجليز .. يشعران بأني لا أتابعهما أحياناً لكني أرجوهما أن يكملا حديثهما .. إنهما يعيدانني إلى الشباب .. إنهما يشعرانني بالألفة و الدفئ الذي أحتاجه في كل لحظة .. يكفيني النوم في سريري البارد وحدي مساءً ! لا تقطعوا حديثكم يا شباب .. بكم أظل مرتبطاً بهذا العالم ..

***

مات السلطان (حمد بن ثويني) اللعين .. هذه الأيام (خالد) في قمة سعادته لموت الخائن ، بينما انقطع (ماجد) عن زيارتي !

سألت (خالد) عن السبب فقال مُتضايقاً :

- لقد أمره عمي (مهيب) بمغادرة السلطنة الى (ممباسة) هو وباقي الأسرة !

- لماذا ؟

- لا أدري .. لكن السحب من بعيد شديدة السواد وفيها بروق !

- ماذا هناك ؟

- الإنجليز رفضوا السلطان الجديد ! قالوا أنه لم يأخذ موافقتهم قبل تنصيبه وبالتالي لابد أن يتنازل حتى يفكر القُنصُل البريطاني في الشخص المناسب !

- رحماك يا ربي .. يالذل أولادك يا (سعيد) ..

- اللعين هو السبب .. لا أدري أكان مجرد أحمق آخر أم كان خائناً حقيراً .. لكنه السبب فيما نحن فيه من ذل على يد هؤلاء القوم ..

شعرت بوجيب في قلبي من لهجة (خالد) ..

- ابتعد عن الأمر يا (خالد) ..

رد (خالد) في حسرة :

- و ماذا بيدي لأفعله يا جدي ؟ إن تاريخ هذه الأسرة كله إنبطاح للإنجليز ! سيسعون لإسترضائهم كالمعتاد بل وتقبيل الأحذية ! لا أمل في العمل يا جدي !

ظللت أنظر اليه شاعراً بألمه .. إن الشعور بالمهانة والذل لا فكاك منه .. لقد طال عمري حتى لم أعد أشعر بمثل تلك المشاعر القديمة .. إنني أنتظر النهاية في أية لحظة الآن ولم تعد هذه الدنيا بقادرة على إحداث التأثير الكبير في نفسي ..

لكن قلبي لا يتوقف عن الخفقان حزناً على حزن حفيدي الحبيب ورفيقي في هذه الدنيا .. لا يتوقف عن الخفقان خوفاً من أن يتهور هذا الشاب الهادئ كما تهورت يوماً .. أخاف أن يفقد هذا الشاب الحبيب حياته لحماسة مفاجئة كما فعلت يوماً ..

- كيف حال والدك الآن ؟
- كما هو للأسف يا جدي .. لم يعد بمقدوره التحرك من سريره بسبب الألم ..
- يا (خالد) .. والدك و أسرتك يحتاجونك ، فلا تتهور يوماً يا بني ..
نظر لي صامتاً دون تعليق ..

***

في ذلك الصباح الصاخب جائني (خالد) مهرولاً ، على وجهه سعادة لم أرها طوال حياتي ، شعرت بالذعر إذ رأيت في يده بندقية !
- خالد ! لماذا تحمل بندقية ؟ لماذا يهرول الجميع في الشوارع ؟
هتف (خالد) في سعادة كبيرة :
- السلطان (خالد بن برغش) أعلن الحرب ضد الإنجليز يا جدي .. زنجبار الآن ستجاهد ضد الإنجليز .. سنخرج من التبعية يا جدي ..
لماذا لا أشعر بالفرح ؟
- و لماذا البندقية ؟
- يا جدي .. اليوم الذي ربيتني وربيت أهلي من أجله قد جاء .. اليوم نجاهد ضد الإنجليز يا جدي .. أدع لي بالتوفيق ..
وقفت ذاهلاً وقد أصابني الخرس ، احتضنني (خالد) وقبل رأسي قبل أن يقول بصوت ملئ بالجذل :
- أعرف أنك كنت تحلم بالجهاد معي يا جدي .. لكن إعتبرني مكانك .. سأقتص للمسلمين من الإنجليز الأوغاد و أذنابهم ..
ثم تركني ليركض في الطريق نحو قصر السلطان ..
(خالد) .. حفيدي ورفيقي ..
لن أطيق الجلوس هنا في الإنتظار ..

ناديت أحد الخدم وطلبت منه أن يأخذني الى قصر السلطان .. نظر لي الخادم في ذعر .. شعرت أنا الآخر بالذعر من أن يرفض نقلي ! أخبرته بلهجة أقرب للضراعة :

- يا بني .. حفيدي هناك .. أرجوك أوصلني إليه ..

دوى صوت المدفعية من ناحية البحر ، الإنجليز الأوغاد بدأوا القصف ، ترقرقت الدموع في عيني وأنا أقول للخادم بصوت باك :

- أرجوك يا بني .. سأكتب لك كل ما أملك .. خذني الآن الى هناك لأجئ بحفيدي ..

نفخ الفتى من منخريه وقال :

- سأذهب بك يا والدي دون شئ .. سيدي (خالد) غال جداً علي .. لكن أرجوك توقف عن البكاء بالله عليك ..

ركبت على البغلة التي راحت تسير في تؤدة بين الشوارع الفارغة .. صوت المدافع المنهمرة من الإنجليز تخلع قلبي لكن صوت المدافع الزنجبارية تزيدني ثقة بأن المقاومة لن تموت .. وصلت الى منطقة بالقرب من ساحة المعركة .. الإقتراب أكثر من هذا مستحيل .. بعض الجهات مغلقة بسبب وجود قوة برية تحاصر القصر .. القذائف تنزل كالصواعق في كل مكان و الإنفجارات لا تتوقف ..

رحل الخادم هارباً من هول الموقف ، لم أقدر على لومه .. ترجلت من البغلة و توغلت في منطقة القصف وأنا أمشي ببطء ..

لم أخف القذائف المنهمرة .. ليت احداهن تصيبني لتنهي وحدة الشيخوخة وآلامها .. لكن لا .. ليس قبل أن أطمئن على حفيدي ..

نظر لي بعض الجنود المختبئين في دهشة وذهول ، ليس من بينهم (خالد) فتابعت طريقي .. لكن أحدهم هرول ناحيتي صارخاً :

- أيها العجوز .. ماذا جاء بك هنا ؟

- أبحث عن حفيدي ؟

- أي حفيد وسط هذه الحرب ؟ أجننت يا رجل ؟

- أرأيت حفيدي ؟ اسمه (خالد بن محمد) !
أصيب الرجل بالخرس لثوان وهو ينظر لي داهشاً ..
- أهو من جند السلطان ؟
- لا .. واحد من الأهالي ..
- اذن تعال معي .. وليكن الله في عوننا ..
عبر بي بسرعة في وسط ساحة القصر فأصابني بإرهاق شديد .. سلمني الى أحد الجنود المتمترسين مع الكثير من الأهالي و أخبره بأني أبحث عن حفيدي ..
لم أنتبه له و رحت أبحث بعيني في وسط المدنيين حاملي السلاح ، كنت خلفهم و جميعهم منتبه و جالس بسلاحه يطلقه لمواجهة وإيقاف القوات الزنجبارية البرية الخائنة بقيادتها الإنجليزية التي تهاجم القصر ..
لكن لم يكن بينهم حفيدي ..
- إنه ليس هنا ..
- هؤلاء هم كل الجنود الأهليين ..
- لكني واثق بأنه جاء الى هنا ..
- إذن اذهب الى هذا الخندق الصغير هناك .. فيه الجرحى ..
جرحى ؟ لا ..
تحركت نحو الخندق و قلبي يكاد يقف .. لا أريد أن أراك يا (خالد) .. يا ربي لا تجعلني أراه الآن ..
لكنه كان هناك !
انهمرت الدموع فوراً وأنا أتفحص جسده في لوعة .. لم يكن أحد بجواره لأن الكل مشغول بالقتال .. العبيد والنساء والجميع يُقاتل ..
عنده اصابة بليغة في جانبه .. تبدو كشظية طلقة مدفع لفداحتها .. صرخت أطلب النجدة بصوت عال ضاع وسط دوي المدافع ..

فتح (خالد) عينيه .. ابتسم عندما رآني وقال بصوت خافت شيئاً لم أتبينه ، قربت أذني من فمه فوجدته يقول :

- أشهيدٌ أنا يا جدي ؟

وسط دموعي المنهمرة التي أغرقت لحيتي قلت والهزيمة تفوح مني :

- أفعلتها من أجل السلطان أم من أجل المسلمين يا خالد ؟

الدماء خرجت من فمه وهو يقول بصعوبة :

- من أجل المسلمين يا جدي .. والله يشهد لي ..

سقطت رأسه في حضني ، رحت أصرخ و أبكي بلا توقف .. أمسكت بندقيته .. إن طلقة واحدة منها كافية لقتلي من اندفاعها .. لكن تباً لدنيا بلا (خالد) .. تباً لدنيا بلا رفيق .. تباً لدنيا فيها المنتصر هو الوغد .. تباً للإنجليز ومن حالفهم .. أذناب الإنجليز قتلوا إبني .. أذناب الإنجليز قتلوا حفيدي ..

وضعت رأس (خالد) حبيبي على الأرض .. أخبرته بأني قادم اليه بعد قليل .. خرجت من الخندق لأجد المتمترسين في حالة ذعر بالغة .. الجند الزنجباريين الخونة المحاصرين للقصر بقيادة الإنجليز و حلفاؤهم يتقدمون ويجتاحون كل شئ .. كان القائد يطلب من الجميع الإستسلام .. لقد خسرنا الحرب .. الإنجليز تفوقوا ..

لا والله .. حربي لم تنته .. بل بالأحرى .. بدأت الآن !

كان جميع الجنود يهرولون الى الخلف نحو القصر .. وحدي جلست و أعددت البندقية الجاهزة للإطلاق .. ياللحيوية .. أتذكر الآن الماضي .. أتذكر يوم هرب الجيش النجدي الذي أنتمي اليه وظللت في المقدمة .. دائماً كنت متهور يا (راكان) .. دائماً كنت تفعل الغير متوقع .. مغامرة الجبل في البريمي .. مغامرة السجن في مسقط .. مغامرة مصارحة السلطان هنا في زنجبار ..

كان حظك السئ يكمن في نجاتك كل مرة ! كلما نجوت أصابك الإرتباك و الحيرة .. هل كنت على صواب أم على خطأ !

لتحرص هذه المرة على الموت ..
لتحرص على الشهادة ..
فلتنه حياتك و أنت في هذه اللحظة الرائعة من اليقين ..
لقد أثبتت الأيام صحة كلامك ..
أثبتت صحة معتقدك ..
فمُت من أجله .. كما مات حبيبك و حفيدك ..
رفعت البندقية .. الجيش الخائن وقادته الإنجليز يتحركون الآن في حرية أمام البوابة و قائد حامية القصر يسلمهم نفسه .. اطلاق النار توقف والرايات البيضاء مرفوعة فوق القصر الذي تهدم ..
لا أحد يتوقع أي غدر الآن .. انهم يتقدمون في تفاخر .. هناك ظابط إنجليزي يتقدمهم .. إنتظرت حتى يقترب أكثر كيلا تطيش الرصاصة .. الآن أشعر بعمري في الخمسين أو أقل بكثير هناك نصف قرن من الحيوية في قلبي وعضلاتي الآن ..
لكن ..
من هذا الضاحك بجواره ؟
أليس هذ هو (مهيب) ابني ؟!
(مهيب) ؟!!
أصبح كهلاً الآن لكن ملامحه لم تغب عني طوال هذه السنوات !
يا للهول ! كيف نسيت هذا ؟
(مهيب) ابني كان مع الإنجليز ؟
(مهيب) ابني قتل حفيدي ؟
الآن أعيد التفكير .. أيهما أولى بالقتل ؟
(مهيب) أم القائد الإنجليزي ؟
رفعت البندقية .. لم أعد أرى (مهيب) .. كلما اقترب رأيت وجه (سعيد بن سلطان) !

تذكرت ذلك اليوم الذي واجهته فيه .. اليوم الذي سجنني بعده .. اليوم الذي سمح فيه للمنصرين بالعمل و فتح باب كل هذا الهلاك ..

لقد ظللت محتاراً طوال عشرات السنوات يا (سعيد) .. ظلت حيرتي وتساؤلاتي عما اذا كان ما فعلته معك كان هو الصواب ..

الآن أدركت الحق ..

الآن وصلت لليقين ..

أطلقت نار بندقيتي و أنا أصرخ فيخرج صوتي العجوز واهناً :

- هو الصواب يا (سعيد) ..

سادت هرجلة كبيرة بين الصفوف المتقدمة بينما سقطت على ظهري من اندفاع البندقية ، حاولت النهوض بينما الصرخات الإنجليزية تملأ الجو من حولي .. صوت عشرات الطلقات تنهمر على مخبئي .. لا أشعر بألم أصلاً .. لا أشعر بخوف .. بل الحقيقة أشعر بسعادة أن عجوزاً مثلي متواجد في هذا الموقف أصلاً !

و جاء صوت المدفع الأخير ..

النهاية